

عبد الوهاب مطاوع

الحب فوق البلاط

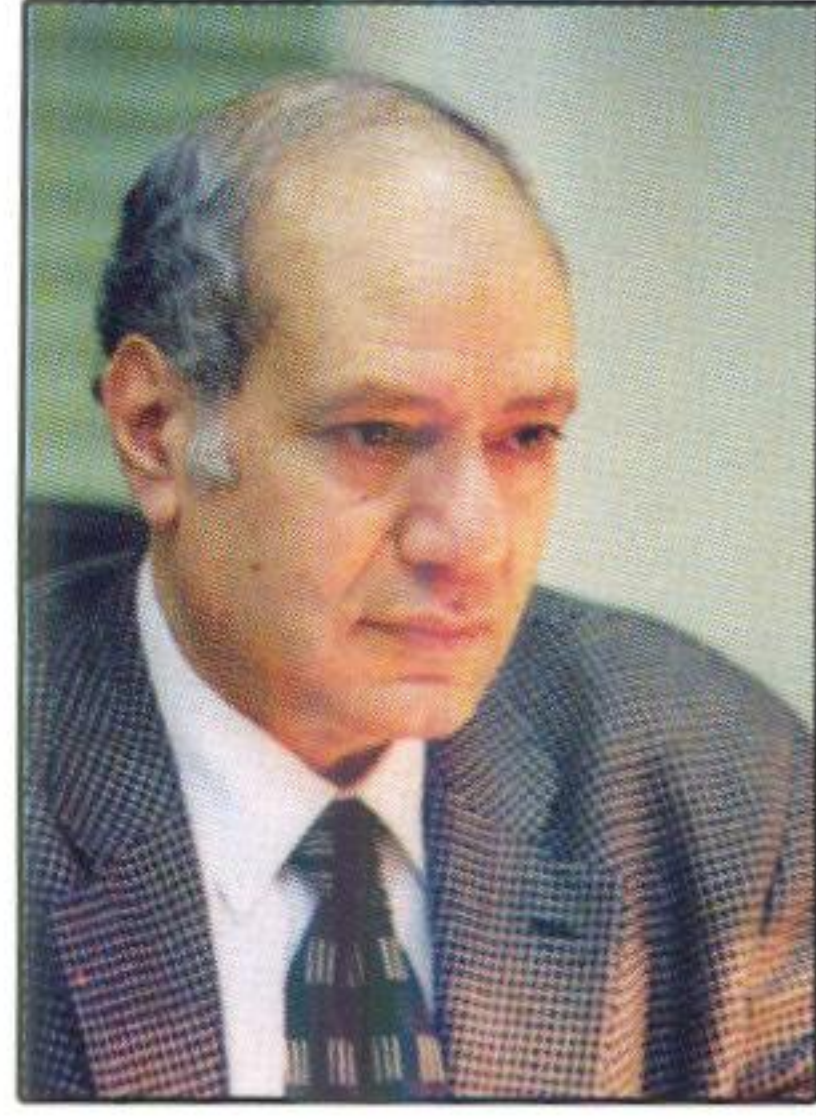
مكتبتنا

كنوز من المعرفة



A
h
m
e
d
M
a
d
y

الدار المصرية اللبنانية



* عبد الوهاب مطاوع 1940-2004
 * شغل منصب مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.
 * حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام 1992 كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.
 * كان يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.
 * صدر له 52 كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات.
 * صدرت له ثلاث مجموعات قصصية هى: (أماكن فى القلب) (ولاتسنى) ، (والحب فوق البلاط).

الحب فوق البلاط

الحياة.. تلك الجوهرة المحيرة.. تشرق بأضوائها وألوانها فى لحظات السعادة فتشرق مخايل الأمل والتفاؤل فى نفوس البشر، فتدفعها إلى مزيد من البذل والعطاء فى سبيل تحقيق الآمال والأحلام.. وهى نفسها تشرق بأضوائها باهتة، فتطفو على سطح العمر ذكريات مرة وآلام ومتاعب لاحصر لها، تدفع النفوس الضعيفة إلى اليأس والإحباط.. وبين مراوحة الأمل واليأس.. تمضى دقائق الحياة ولحظاتها بين صعود وهبوط ونجاح وإخفاق.. وتلك هى عظمة الله سبحانه وتعالى فى خلق البشر.



عبد الوهاب مطاوع

الحب فوق البلاط

الدار المصرية اللبنانية



- 11 نظرة جامدة
- 22 الحب فوق البلاط
- 33 طائر الحنان !
- 41 الصوت الكئيب !
- 51 لك ولمن تحبين !!
- 67 لحظات مسروقة !!
- 79 الحلم الذي كان !
- 95 سكرتيرة جديدة !
- 103 الحقيبة الصغيرة !
- 117 الغدر . . يا حبيبي !
- 125 التساؤل الصامت !

« أَمِنْ أَجَلْنَا يَا رَبُّ جَعَلْتَ اللَّيْلَ
شَدِيدَ الْعُمُقِ ؟

أَمِنْ أَجَلِي جَعَلْتَ الْهَوَاءَ دَافِئًا . .
وَنورَ الْقَمَرِ يَتَهَادَى

إِلَيَّ مِنَ النَّافِذَةِ فَيَغْمُرُنِي بِنَبْضٍ مِنَ
السَّحْرِ ؟

رَبِّ إِنْ كَانَ لِلْحَبِّ حَدٌّ فَهُوَ مِنْ
صُنْعِ الْبَشَرِ

وَلَيْسَ مِنْ صُنْعِكَ

وَمَهْمَا يَظْهَرُ حُبِّي آثِمًا فِي أَعْيُنِ
النَّاسِ

فَأَلْهَمْنِي الْإِيمَانَ بِأَنَّهُ عِنْدَكَ طَاهِرٌ
نَقِيٌّ »

من مناجاة للقس البروتستنتي بطل رواية «السيمفونية الريفية»
للأديب الفرنسي أندريه جيد يتحدث فيها عن حبه الطاهر للفتاة
العمياء «جرتروود» !

نهضت من نومها في موعدها اليومي مُثقلة الرأس بالصداع وخائفة القوى كحالها منذ أيام ، ارتدت رובה الأزرق الفاتح فوق قميص نومها ، ودلّكت ما تحت عينيها برفق ، كأنما تنفض عنهما أثر النوم القلق المضطرب ، ثم رمقت زوجها النائم في فراشه بنظرة جامدة ، كأنما تُنكر عليه نومه العميق المطمئن وغادرت الغرفة .

خرجت من الحمام إلى المطبخ فوضعت أبريق الماء فوق النار والخبز في الفرن ، وفتحت الراديو فانسابت منه كلمات أغنية عمّقت من إحساسها بالشجن .

«كلُّ عام وأنت بسلامة وخير . . سلامة وخير يا أمي» الكلمات جميلة لكن الأثر غامض وحزين ويجدد الآلام .

توارت ذكرى الأم في مخيلتها فلم تعد تذكر عنها الكثير ، ومن بعدها تراجعت صورة الأب حتى تحولت إلى ذكرى قديمة . . وها هي الأيام تنذر بالآلام جديدة .

على غير انتظار!

1 ترقرقت دمعة في عينيها مع تصاعد إحساسها بالشجن ، فغادرت المطبخ إلى غرفة «الأبناء» ، رمقت «هادية» نائمة متكورة في فراشها كعادتها ، و«راضى» الذي يطيح كل ليلة بالغطاء عنه مهما ابتكرت من حيل لتثبته بحنان ممتزج بالخوف ثم بدأت بإيقاظ هادية الأسرع استجابة دائماً . .

وبدأت جهادها اليومي مع راضى . «هادية» أكثر مسالمة وأكثر عاطفية . . أما «راضى» فهو مُتعب قليلاً ، لكنه طيب ويعبر عن مشاعره بالتصرفات وليس بالكلمات ، غادر الابنان غرفة نومهما إلى الحمام فرجعت إلى المطبخ لإعداد الإفطار . أجمل أوقات يومها حين تجمعها مائدة الإفطار كل يوم بهما ، فيتبادلون الحديث والمداعبات والأخبار ، ثم يخرج الابنان إلى المدرسة ، فتعد إفطار زوجها وتجلس إليه لتشاركه قهوة الصباح . . يئس منذ سنوات من استجابتها لرجائه بأن تنتظره لتتناول الإفطار معه ، وسلّم برغبتها فى مشاركة «طفليها» إفطارهما لكي تشجعهما على تناوله .

فى زمان سابق كانت تُشرف بنفسها على دخولهما الحمام . . واغتسالهما وارتداء ملابسهما . لكن ما أسرع ما يكبر الأبناء ويعتمدون على أنفسهم فى مثل هذه الأشياء الجميلة ! .

كبرت «هادية» و«راضى» سريعاً . . واعتمدا على نفسيهما فى أشياء كثيرة ، لكن القلب لا يسعد أبداً بتراجع أهميته لدى الأعداء ! .

جلس الثلاثة إلى مائدة الإفطار . . وما زال صدى كلمات الأغنية الحزينة يثقل مشاعرها بالشجن . . فعزفت عن تناول الطعام وراحت تحتسى الشاي فى صمت وهى ترقب «طفليها» فى أسى غامض ! .

تنبّهت من أفكارها على صوت هادية يسألها فى عطف : مالك يا ماما؟

فاغتصبت ابتسامة شاحبة وطمأنتها إلى أنها على خير ما يرام ! .

«هادية» أكثر رقة من «راضى» ، لكن راضى لا يخلو أيضاً من حنان يعبر عنه عند الضرورة بطريقته الخاصة .

تسألنى عمّابى . . فبماذا أجيبها؟ كيف أشرحه لها وكيف تتفهم الصغيرة عمق أحزان الكبار؟ .

بى إحساس قديم باليُتم والانكسار . . وخوف جديد من الغدر وتقلبات الأيام! فقدت أمى وأنا طفلة صغيرة . . وتربيت فى بيت عمتى مع أبنائها . .

وبعد سنوات قليلة رحل أبى أيضاً عن الحياة؛ فترسّخ فى أعماقى الخوف من عثرات الطريق . . لم تكن عمتى قاسية لكنى كنت أيضاً عبثاً لا يضيق به أحد . . ولا يرحب به أحد فى نفس الوقت، وشتان بين إحساس الابن بحقه على أبويه . . وبين إحساس «الضيف» الذى لا يحقُّ له أن يطالب بما لا يقدمه له مضيفه طواعية، أمضيت طفولتى وصبأى أشعر بأنه لا حق لى على أحد ولا أطلب بشىء . . وحين تقدم لى زوجى الأول لم أكن مرحباً به، لكنى لم أجرؤ على رفضه لمميزاته التقليدية . . ولأن الرفض ترفٌ لا يملكه إلا الأبناء وحدثهم! حتى ابنة عمتى المتمردة ثارت على وقتها، واتهمتني بالضعف والتخاذل، وطالبتني بالرفض والاحتجاج . . فلم أستجب لدعوتها وواصلت الطريق بلا حماس . . كان معيداً بنفس كليتى ويستعد للسفر للخارج بعد شهور لإعداد رسالة الدكتوراه، وتم زفانى إليه قبل شهور من سفره ثم سافر إلى بعثة، ورجعت إلى بيت عمتى أحمل ثمرة الزواج فى

أحشائي . . . وبعد شهر آخر اكتشفت وفاة الجنين قبل مولده، وكدت أفقد حياتي في جراحة الإجهاض الخطرة .

انتظرت دعوة زوجي لي للحاق به حيث يُقيم كما كان الاتفاق بيننا . . فبدأت المراوغة وإبداء الأعذار . كان مفروضاً أن يرجع في إجازة لمدة شهر بعد عامين فلم يرجع . . ولم يستقدمني إليه فمضت أربع سنوات كاملة ولا شيء يربطني به سوى الخطابات! ثم تكشف الغدر سافراً بعد سنوات الانتظار، فرفض العودة نهائياً وفُصل من كليته وتزوج هناك، وأرسل إليّ بورقة الطلاق ! .

تجرّعت مرارة الغدر والخذلان وتعرضت لمتاعب صحية ونفسية جسيمة، انتهت بتأكدي من استحالة إنجابي مرة أخرى، فبدالي واضحاً أن الحياة لم تسمح بعد بالأمان .

تقدم لي زوجي الحالّي بعد طلاقى وتقدم لي غيره، لكنني فضلته على الآخرين لأسباب لم يُعارضني فيها أحد حتى ابنة عمتي المتمردة .

فقد كان أباً لطفلين صغيرين حائرين هجرتهما أمهما وتزوجت ورحلت مع زوجها الجديد . . كانت أصغرهما طفلة عمرها 3 سنوات وأكبرهما طفلاً عمره أربعة أعوام هما أنت وراضى . . فخفق قلبي لكما قبل أن أراكما، وقدرت أن أباكما سوف يحتاج إليّ أكثر مما أحتاج إليه، ولن يغدر بي ذات يوم كما فعل زوجي السابق فتزوجته، وحرصت على نجاح زواجي منه مهما كانت العقبات . . وأفرغت فيكما كل أمومتي المحرومة وكل إشفاقى عليكما من افتقاد الأمان! وأحببتكما من قلبي

وسعدت بلفتات حيكما الصغيرة لى ، وبالغت فى رعايتكما والعناية
بكما ، حتى أصبح ذلك موضع نقاش مستمر بينى وبين أبيكما الذى يريد
لكما الاعتماد على نفسيكما . . عارضنى حين رغبت فى التفرغ لكما
فلم أستجب لمعارضته ، وحصلت على إجازة من عملى دون مرتب
وتفرغت لكما منذ سنوات ، وكلما جاء موعد تجديد الإجازة تجددَّ الجدل
بينى وبينه . . وحسمته بالإصرار على أن أصبح لكما أمًا متفرغة حتى
سألت نفسى أكثر من مرة :

هل أحب زوجى لأنه أباكما . . أم أحبكما لأنكما ابناه أو لأنكما
أشبعتما حرمانى العاطفى من الأطفال ؟ .

فهل يرضيك بعد كل ذلك يا هادية وبعد ثمانى سنوات طويلة من
الحب والأمان أن أكتشف منذ أيام أن زوجى على صلة بأمكما ، وأنه
يرتبّ معها لأن تزوركما فى الصيف القادم وتراكما للمرة الأولى منذ
هجرتكما بلا ندم ؟

لقد كان صباحًا كهذا الصباح الذى يجمعنا الآن وبعد أن خرجتما إلى
المدرسة ، وخرج أبوكما إلى عمله . . بدأت أرتب غرفة النوم وأخرجت
من دولاب الملابس بدل زوجى التى سأكويها . . وكعادتى قبل أن أفعل
ذلك فتشّنتُ البدل حتى لا أكويها وبها شىء يتكسر كما حدث من قبل مع
نظارتها . . فإذا بى أجد فى جيب إحدى بدله خطابًا بل خطابات من
زوجته السابقة تقول فيها إنها «تشتاق» إلى رؤيتكما ، وتحدد الصيف
القادم موعدًا لعودتها مع زوجها وولديها منه ، «وتشكر» أباكما لترحيبه
بأن ترى ابنيها «الغاليين» بعد كل هذه السنوات ؟ .

ابناها الغاليان؟ وأين كانت إذن منهما حين كانا يحتاجان إليها وأنت يا هادية في الثالثة . . وأخوك في الرابعة من عمره؟ ولماذا هان عليها الابنان «الغاليان» فتركتهما لأبيهما، وتركته ولم تستجب لتوسلاته بالألا تحطم زواجها وتتخلى عن أبنائها؟ ومتى رجعت هذه الصلة بينها وبين زوجي عن طريق الخطابات؟ ولماذا أخفاها عني؟ ولماذا لم يصارحني بالأمر منذ البداية؟ بل ولماذا يبدو في الفترة الأخيرة وكلما اقترب موعد عودتها مضطرباً قلقاً، كأنما يهم بأن يُصارحني بشيء مهم ثم يتخاذل عنه في اللحظة الأخيرة؟

هل يخشى غضبي من هذه الاتصالات؟ . . هل يخشى رفضي لهذه العلاقة الجديدة التي ستقوم بينكما وبين تلك المرأة الأخرى التي تخلت عنكما وأنتما في أشد الحاجة إليها؟

إنني «لا أمانع» بالطبع في أن تراكما تلك السيدة وفي أن تريانها . . ولا في أن تقدم لكما - كما قالت في خطابها - بعض الهدايا والملابس حتى ولو كرهت ذلك في أعماقي؟ لكن هل الأمومة مجرد لقاء خاطف لعدة ساعات أو أيام وبعض الهدايا والملابس مهما غلا ثمنها؟

وأين كانت تلك المرأة وأنا أغسل لكما ملابسكما الداخلية الملوثة بحب وحنان، وأنشرها على حبل الغسيل، وأعدُّ لكما أنواع الطعام التي تحبونها وأصطحبكما إلى مدرسة الحضانة في يومكما الأول بها، وأرفض الانصراف منها رغم إلحاح المدرسة لأنكما طلبتما مني ذلك؟ بل وأين كانت وأنا أحملكما من عيادة طبيب إلى طبيب آخر لأعطيكما الأمصال

اللازمة فى مواعيدها المقررة، وحين ذاكرت لكما دروسكما . . وسهرت بجواركما حتى الصباح إذا أصابت أحدكما وعكة . . بل وأين جنونى وهذيانى وخوفى وقلقى ودعائى لربى بخوف ورجاء حين مرضت أنت يا هادية مرضاً قاسياً عنيداً، طال أكثر من شهر، وتدهورت صحتك حتى سلمت أمرى فىك لربى وكدت أفقد صوابى؟

والآن فقط تشتاق إليكما بعد 8 سنوات طويلة، وبعد أن استوى كل منكما ابناً رائعاً مهذباً تفخر به كل أم؟

إننى منذ علمت بما يدبره زوجى معها . . وأنا لا أطيق أن تلتقى عيناى بعينيه، وأختلس النظر إليه من حين إلى آخر فى غيظ مكتوم، وأحس أنى أريد أن أنشب أظافرى فى وجهه كلما اشتدت على مخاوفى أن تتسرباً من بين أصابعى، أو تتوجهها ببعض مشاعر كما إلى تلك المرأة الأخرى التى تريد الآن قطف الثمار بغير أن تروى شجرتها بالعرق والدموع . . فهل هذا يا ربى عدل السماء؟ إن عمى تقول لى إن هذا من حقها مهما كانت أما سيئة أو أنانية، وأنه من حقكما أيضاً كأطفال مهما كان ارتباطكما بى . . وأنا لا أعترض على حق أحد لكنى كنت أتمنى فى أعماقى أن تجيء «المبادرة» من جانبى، فأحدثكما طويلاً عن حقوق الأم على أبنائها حتى ولو كانت قد تخلت عنهما . . وكنت أتمنى ومازلت أتمنى أن يجيء الإنكار من ناحيتكما . . ويجيء نداء «الواجب» الذى لا مفر منه من ناحيتى أنا . . فهل تفعلان حقاً؟ وهل تؤكدان لى أن أمومتى لكما لن تضيع هباء، ولن تنسى أبداً أننى أمكما الحقيقية مهما توسلت «الأخرى» بالوسائل والمغريات؟

إن عينيّ تدمعان حين تنادياني بالكلمة الحبيبة «ماما» . . فهل سأظل
كذلك بالنسبة لكما مهما جرى من أحداث؟ أم سيجيء يوم أشعر فيه بأن
الخيوط التي تربطكما بي قد انتقلت إلى يد تلك «المرأة الأخرى» وأنتما
أثمن الأشياء في عالمي الصغير؟ لقد بكيت فرحاً حين تغاضبت ذات مرة
مع أبيكما، فبكيت أنت يا هادية بالدمع الغزير وقبلتني بحنان، وقلت لي
في عطف ما زلت أسترجع لمستته الحانية :

معلش يا ماما! وبكيت أكثر وأكثر حيث سمعت «راضى» الذى
لا يُحسن التعبير عن مشاعره بالكلمات «يتشاجر» مع أبيه من أجلى! فهل
تسرق الأخرى مشاعر كما الغالية هذه نحوى؟

إننى أكاد أجن كلما تصورت ذلك . . وأرغب الأيام خائفة مما سوف
تحمله لى . . فهل تُسعدان قلبي الحزين بتبديد مخاوفي؟

تنبّهت الأم فجأة من استغراقها فى أفكارها على «راضى» يضغط على
يدها لتلتفت إليه . . ويقول لها :

ماما . . ماما لدينا مباراة كرة قدم اليوم بعد انتهاء الدروس ،
وسأشارك فيها وسيفوتنى موعد أتوبيس المدرسة فى العودة، فهل تطلبين
من بابا أن يُرجعنى إلى البيت؟

تأملت ملامحه المتحفزة دائماً التى تعكس جانباً كبيراً من ملامح أبيه
للحظات فتعجّلها الإجابة خائفاً من الرفض :

- ماذا قلت يا ماما؟

فاستردت نفسها سريعاً وتسلمت الابتسامة إلى وجهها رغماً عنها
وقالت :

«لن أقول لأبيك شيئاً وسأجىء أنا لاصطحابك إلى البيت» .

فابتسم راضياً وسعيداً وشكرها، ثم نهض مع هادية عن المائدة،
وحمل كل منهما حقيبته وهماً بالخروج، فاستمهلتها «أمهما» كعادتها
اليومية، ثم أسرعت إلى غرفة النوم ورجعت حاملة زجاجة عطرها
المفضل فرشّت رذاذها على وجه هادية وشعرها . . واستجابت لرغبة
راضى التقليدية، فركزت رذاذ عطرها على يديه ليمسح بهما وجهه كما
يفضل دائماً، وودعها الطفلان باسمين وغادرا الشقة . راقبتها باهتمام
حتى هبطا درج السلم ثم أغلقت الباب وراءهما وهمّت بالاستدارة
لتدخل المطبخ، وتعد إفطار زوجها قبل أن توقظه ففوجئت بصوته يجىء
إليها من خلفها متسائلاً :

- خرج الأولاد؟

فأجابته وهي تتجنب النظر ناحيته . . وتتجه إلى المطبخ :

- نعم خرجوا منذ لحظات .

ثم دخلت المطبخ فوضعت أبريق الماء فوق النار، وانشغلت بإعداد
إفطار زوجها وقهوتها وصدى سؤاله مازال يتردد في أذنها :

خرج الأولاد؟ فتجيبه في خيالها بأمل ورجاء كأنما تُطمئن نفسها : نعم
خرجوا . . لكنهم سيعودون إلى مرة أخرى . . وسيعودون إلى دائماً
مهما كانت مرارة القدر . . وقدرة الخداع!

- إلى متى تظلين تهريين من العمل بنفس هذه الحجج السخيفة
ثم تعودين خائبة من كل عمل تلحقين به بعد أيام؟

- لست أتهرب من العمل . . ولكن من «أشياء أخرى»
تعرفينها جيداً . . وليس ذنبى أننى لا أصادف من أصحاب
الأعمال إلا من يطلبون «هذه الأشياء» !

- وماذا تفعل كل البنات اللاتي يعملن فى كل مكان . .
هل كلهن غير شريفات؟

- لا شأن لى بغيرى فلا تزيدى من كربى أرجوك يا أمى .

قالت الجملة الأخيرة ثم غادرتها فى مجلسها التقليدى فوق
الكنبة البلدية التى تتصدر صالة الشقة الكالحة، ودخلت إلى غرفة
مجاورة لباب المطبخ وصوت أمها يتمتم فى ضيق:

- عجائب! .

وضعت حقيبة يدها «الأثرية» فوق مائدة خشبية صغيرة
وخلعت فستان الخروج القديم ووضعتة فى الدولاب، وارتدت
ثوباً منزلياً أكثر قدماً، وجلست فى فراشها قانطة لا تدرى ماذا
تصنع بنفسها.

2

ومن الصالة جاءها صوت أمها فى محاولة مألوفة «للصلح»
بعد كل نزاع مماثل:

- وفاء . . ألن تأتى لتشربى الشاي معى؟

فترددت في أن تُجيب نداءها بعض الوقت ، ثم آثرت السلامة وقالت
من فراشها :

- سأتى بعد قليل يا أمى !

دارت بعينها في غرفتها التي ينطق كل شيء فيها بالحرمان ، وتشاركها
فيها أختٌ تدرس بالمرحلة الإعدادية تقاسمها الفراش الوحيد . . وأختٌ
ثالثةٌ بالمرحلة الابتدائية تنام عند قدمي الأختين بعرض الفراش . .
وتساءلت في اكتاب . . إلى متى يستمر هذا العناء يا ربى ؟

كلما ظنت أن الحياة قد رقت لها أخيراً واستقرت في عمل جديد تأمل
أن تخفف بجزء من مرتبها عنه من جفاف حياة أسرتها ، وتُسهم بالجزء
الأكبر في نفقات جهازها الذي لم تشتتر منه خيطاً واحداً . . بدأ صاحب
العمل يتودد إليها . . فتتجاهل غرضه إلى أن يصل معها إلى النقطة
المرجوة . . فتترك العمل باكية على دخلها منه ، وتواجه نفس المحنة مع
أمها من جديد . .

عكست مرآة الدولاب العتيق وجهها الجميل وجسمها الملفوف . .
فتأملتها ساهمةً وتولتتها فجأة نوبةً سخط عارمة فكادت أفكارها تتحول
إلى كلمات مسموعة . . نعم جميلة ومغرية وحتى شقيقتاي لم تحظيا
بنصف جمالى ، وأعرف ذلك منذ طفولتي ومنذ كانت أمى تنظر إلى
بإعجاب وتقول بحسرة :

جميلة ورب الكعبة كأنك من بنات العز . . فليكن حظك في الحياة
بمثل هذا الجمال !

لكن الجمال لم يفتح لى الأبواب كما تمت لى أمى ، وإنما أغلقها فى وجهى أكثر من مرة ، فلقد صادف هذا الجمال السخى روحاً جادة تنفر من العبث . . وقلباً لا يعرف إلا الإخلاص لمن يحب .

أما فتى القلب البائس فقد ارتبطت به منذ سنوات وفضلته على الجميع وصمدت لكل المغريات . . وحين أنهت دراستها تقدم لها خاطباً ، فرفضته أمها بإصرار قائلة لها إن «جمالها» يستحق من هو أفضل منه ، لأن أباهم موظف صغير لا يملك شيئاً ، ولن يستطيع أن يسهم فى جهازها بجليم . والفتى فقير مثلها ولن يقدر على توفير متطلبات الزواج فتمسكت بفتاها حتى النهاية . . وأيدها أبوها ضد رغبة أمها فسلمت بما أرادت ، وهى تُخلى «مسئوليتها» عن هذه البنت «الفقرية» التى لا تعرف قدر نفسها . وتمت خطبتها لعصام وقدم لها شبكة ذهبية متواضعة ، ونجح بمساعدة أبيه الموظف بالمعاش فى أن يقدم لها بعد عام من الخطبة «مهرًا» لا بأس به لمن هو فى مثل ظروفه ، لكن قسوة الحياة استهلكت مهر الابنة خلال فترة الانتظار ، وبجراحة غريبة راحت الأم تنفق من مهر البنت على مطالب أخواتها الضرورية . . وتطلب من الفتى بصراحة عجيبة أن يعتمد هو وخطيبته على نفسيهما فى إعداد الجهاز ، لأن الأسرة لا تستطيع أن تقدم لهما منه شيئاً . .

وتقبل الفتى الأمر الواقع بلا سخط وكبح كل محاولة من أبيه وأمه للاعتراض ، وبدأت وفاء تخرج للبحث عن عمل وتتقدم لمسابقات الوظائف ، فكان جمالها يفتح لها أبواب الاختيار بسهولة فى البداية ثم لا يضمن لها الاستمرار طويلاً .

فبعد أسابيع وربما شهور تتغير معاملة صاحب العمل لها وتبدأ الدعوات للخروج . . والاستمتاع . . فى البداية كانت تجفل من كل لمحة معاملة خاصة يُديها نحوها صاحب العمل فتسرع بمغادرة المكان، وتحاسبها أمها على ترك العمل بغير أسباب جدية، ويتجدد الخلاف بينهما إلى أن يحسمه الأب لصالح ابنته الجميلة، ثم علّمتها الأيام أن تُطيل حبال الصبر على أصحاب المكاتب التى تلتحق بها وتتجاهل لفتاتهم وإشاراتهم، لتطيل فترة عملها لديهم إلى أقصى حد ممكن حتى إذا حانت لحظة الاختيار . . اختارت نفسها وحبها ورجعت باكية إلى البيت لتجد نظرات أمها الانتقادية فى الانتظار .

ويوماً سألتها الأم فى تعجب :

ولماذا تتصورين أن كل الرجال يطاردونك . . هل أنت السفيرة عزيزة؟ فأجابت عنها أفكارها بغير كلام . . ليس الجمال وحده هو الذى يغوى بى أصحاب العمل يا أمى . . لكنها رائحة الفقر التى تصاحب هذا الجمال وتُهيئ لهم أن «مثلى» لا تصمد طويلاً لإغراءات الحياة، وهذا هو ما يؤلمنى أكثر من أى شىء آخر!

إنك لا تعرفين مرارة الإحساس بأن ما يغرى الآخرين بك ليس جمالك وحده، وإنما أيضاً ضعفك وحاجتك وفقرك . . فهل تفهمين؟

ويوم قال لى صاحب معرض السيارات الذى عملت معه ثلاثة شهور: قولى نعم فقط وسوف تستبدلين هذا الفستان القديم البالى بدولاب كامل من الفساتين . . وسوف . . وسوف .

فكانت إجابتي عليه أن طلبت أجرى عن الأيام التي عملت فيها معه من الشهر، وانصرفت من مكتبه مودعة بسخريته اللاذعة، وبكيت حتى احمرت عيناى وأنا أدافع عن نفسى أمامك بأنى لا أتوهم أشياء غير حقيقية ولست معقدة من الرجال كما تتصورين، ولولا إدراكى لقسوة الظروف لاتهمتك بأنك تدفعيننى دفعا إلى طريق التساهل بحسابك العسير لى فى كل مرة حين أترك العمل.

أما صاحب مكتب الاستيراد الذى عملت معه أربعة شهور؛ فلقد كدت أفقدك يا أمى نهائياً بسببه لولا حنان أبى وطيبته. . فلقد طال عملى معه لأنه عاملنى باحترام وأبوة فى البداية. . لكنه بعد شهرين بدأ يسألنى عن أسرتى وحياتى الخاصة وخطيبى. . وينصحنى بالتخلص منه، وبأن يبحث كلُّ منا عن حظه مع طرف آخر ظروفه أفضل، لأننا إذا استمررنا فى مشروع زواجنا مع ظروف كلِّ منا فلن نتزوج قبل «قرن» من الزمان، وقدَّرتُ نصيحته وشكرته عليها، لكنى تمسكت بحبى حتى النهاية، فإذا بى أفاجا به جالسا بين يديك فى صالة شقتنا المتواضعة، وأنت لا تسعك الفرحة به وبهدية «التعارف» التى قدمها لك وجبل «الجاتوه» الذى جاء به، ثم تزفين لى «البشرى» بأنه قد جاء يخطبنى منك. وسوف ينتشل أسرتنا كلها من الحاجة. . ويوفر لى كل ما تحلم به فتاة جميلة مثلى. . وسأبقى وسط أهلى كما كنت، ولن يتغير فى حياتى شىء سوى أنه سوف «ينقلنا» جميعاً إلى شقة حديثة تكون لى فيها غرفة خاصة مستقلة هى عش زواجى به. . لأنه زوج وأب لأبناء فى المدارس والجامعات ولا يريد لهم أن يعرفوا أنه قد تزوج بشابة جميلة، ويقدر دهشتى للعرض

كانت دهشتى لفرحتك به ومحاولتك إقناعى بقبوله حتى ذكرك بأن
قرانى معقود على شاب آخر منذ عامين وأنى أحبه ولن أتزوج غيره . .
ولو تزوجت سواه فلن أكون زوجة ثانية وسرية لرجل متزوج وأب
للأبناء . .

وغضبت منك يا أمى كما لم أغضب من قبل ، وهجرت بيتى إلى بيت
عمى القريب واعتصمت به وتوقفت عن الذهاب إلى العمل ، إلى أن
جاءنى أبى وتعهد لى بالألتاحينى فى هذا الأمر مرة أخرى . . فلماذا
تقسين علىّ يا أمى من جديد وتحاسبينى على تركى للعمل الأخير لنفس
الظروف؟

لاحقها صوت أمها مرة أخرى فأيقظها من أفكارها الكثيرة . . خرجت
إلى الصالة المتداعية ، وجلست إلى جوار أمها وتناولت كوب الشاى فى
صمت ، فرمقتها أمها بظل ابتسامة ، ثم قالت لها لتنهى الموقف بعد أن
علّمتها الظروف أن «تخشى» غضبها ومقاطعتها الصامتة الطويلة لها :

- اشربى الشاى يا بنت الأكاىر ولا تحزنى . . فسوف يفرجها ربك من
باب آخر !

راحت تحتسى الشاى فى صمت فرنّ جرس الباب بعد قليل ،
ونهضت لتفتحه وابتسمت للمرة الأولى منذ رجعت للبيت . دخل شاب
أسمر اللون طويل القامة تشى ملامحه بالطيبة والوسامة . . وعادت به
إلى مجلس أمها وهو يقول لها :

- كيف حالك يا «حماتى»؟

فأجابته بابتسامة «معبرة» وهي تشير برأسها إلى ابنتها :
- أنا بخير . . لكن هناك «أناسا» آخرين يحملون هموم الدنيا فوق رؤوسهم ! .

فالتفت الشاب إلى فتاته وسألها ببراءة :

- ماذا جرى ؟

فنهضت وهي تقول :

- لا شيء .

ثم دخلت غرفتها لترتدى ملابسها .

عاد بنظره إلى الأم فقالت له باقتضاب : نفس القصة القديمة . . تركت اليوم العمل ولن ترجع إليه .

فأحنى رأسه صامتاً فسمعها تسأله :

- وأنت . . ألم يأذن الله بالفرج بعد؟

فأجابها محرّجاً من إثارة «الموضوع» :

- ليس بعد يا حماتي .

والتزم الصمت حتى عادت فتاته مرتدية فستان الخروج واستأذنت من أمها وخرجت معه .

فى الطريق سألته بإشفاق : لماذا تبدو واجماً . . هل سألتك أمى عن نفس الموضوع مرة أخرى؟

فأجابها بإشفاق: نعم . . لكنها لم تزد على السؤال فلا تضيفى إلى أسباب كدرك سبباً جديداً .

أدركت على الفور أن أمها روت له عن تركها للعمل فتأبطت ذراعه . . وجذبتها إليها حتى استشعرت مسَّ كوعه لصدرها، كأنها تحتمى به من الضعف والذئاب وقسوة الظروف، فاستشعرت الراحة للمرة الأولى منذ عادت للبيت .

كانت نزهتهما لا تتجاوز في أحيان كثيرة المشى فى الشوارع المحيطة بالبيت أو زيارة أبوية فى بيتهما القريب . وفى المناسبات البعيدة كانا يذهبان إلى السينما أو إلى كازينو مظل على النيل، وشعر عصام بأن «الموقف» يحتاج اليوم إلى شىء من الترويح، فعرض عليها دعوتها للذهاب للسينما، لكنها لم تتحمس للاقتراح ومالت به إلى مقهى بلدى لم يكن مألوفاً جلوس الفتيات به، وطلبت منه أن يستريحاً فيه لتحدث إليه فى أمر جاد رافضة اقتراحه بالذهاب إلى كازينو النيل، انتحياً طرفاً من الرصيف، وجلسا وسط دهشة بعض الرواد ثم غرقت فى صمتها فترة ورفعت رأسها إليه وقالت له فجأة: عصام لتتزوج بأسرع وقت . . . غداً . . أو اليوم إذا استطعنا .

فأجابها مندهشاً:

- تمزحين . . أليس كذلك؟

لكن تساؤلها تراجع أمام جديتها الصارمة وهى تقول له:

- أنا جادة كل الجدد . . فأنت وأنا لا أمل لنا فى المساعدة من أسرتى أو أسرتك . . ولقد وعدك أبواك بأن يُخليا لك شقتهم ويعودا للحياة فى

بلدتهما بالأقاليم فى أى وقت نتزوج فيه . ونحن لن ننجح فى شراء إبرة
من الجهاز المطلوب قبل سنوات طويلة . . إذن فلنتزوج الآن . . وليرحل
أبواك مشكورين إلى بلدتهما . . ولنبدأ معاً من الصفر وبنى عشنا
ونشترى مستلزمات الزواج قطعة قطعة . . وبالتقسيت . . والآن بلا تردد
فهذه فرصتنا الوحيدة بعد ٦ سنوات من الحب والخطبة والارتباط . .

ابتهج باطنه بالاقتراح السعيد الذى يترجم حبها وتمسكها به رغم سوء
الأحوال ، لكنه أشفق عليها من صعوبة الحياة بلا أية إمكانيات ، وذكرها
بأن أبويه حين يرحلان عن الشقة الصغيرة المكونة من غرفتين بالدور
الأرضى ، فسوف يأخذان معهما أثاثهما العتيق وحتى أدوات المطبخ أيضاً
ليؤثثا بها غرفتى السطح فى بيت أسرة أبيه القديم ، وبذلك ستكون شقة
الزوجية التى سيدآن فيها حياتهما «على البلاط» حين يتزوجان ، فكيف
تستطيع احتمال الحياة هكذا . وحتى الأغطية لن يجداها فى ليل الشتاء
لأنهما لا يستطيعان شراء شىء الآن بمرتبه الذى لا يتجاوز مائة وسبعين
جنيهاً . . حدثها بكل ذلك ثم استطرد :

- فهل تدركين معنى الزواج فوق البلاط !

فأجابته بإصرار :

- نعم أدركه . . ولا تنس أننى لست بنت عز وإنما خبرت جفاف
الحياة والحرمان مثلك طوال حياتى . . سوف ننام على البلاط حتى
نشترى فراشاً وأدوات للمطبخ وأدوات منزلية ، وسوف أعمل وأساعدك
وسنشترى كل شىء بالتقسيت خلال خمس سنوات بإذن الله .

نظر إليها بعمق يرقب وجهها الجميل الذى تألق جماله بفورة الحماس
التي انتابتها، وقال لها بعطف وحب يجلان عن الكلام:

- هل ترضين لهذا «الجمال» الذى أستكثره فى أحيان كثيرة على
نفسى بأن ينام فوق البلاط ويعيش على الساندوتشات، وقد كان فى
مقدوره أن يتمرغ فوق الحرير؟

شاع الرضا فى وجهها وطربت للثناء لكنها قالت له وعيناها تلمعان
بالرغبة فى مداعبته:

- اطلب لى فنجاناً من القهوة ولا تذكّرني بما أسمع من أمى . . ومن
«الذئاب» . . وإلا غيرت رأيت فى الزواج منك!

دعا الجارسون وطلب منه فنجانين من القهوة . . والتفت إليها فرآها
تنظر فى عطف رق له قلبه، فتولاه فجأة الإحساس المؤلم بالعجز عن
إسعادها وقال لها فيما يشبه الأنين والولولة:

- لماذا ربطت نفسك بشاب فقير مثلى . . ولماذا لم تقبلى عرض
«الرجل» الغنى صاحب مكتب الاستيراد . . ولماذا كنت مثلى ضحيةً لمثل
هذا الفقر الأزلى؟ . . إننا فقيران للغاية يا وفاء، وهذا أمر محزن فى حد
ذاته، لكنه يؤلمنى الآن بأكثر من أى وقت مضى لأنك ستبدئين حياتك
الجديدة ونحن لا نملك شيئاً . . أى شىء . .

استمعت إلى أنينه بقلب لم ينبض بالحب إلا له، وقالت بهدوء أرادت
أن تعيد به الثقة إلى نفسه:

- نحن نملك كل شيء . . نملك الحب . . والإخلاص والصفاء
والشباب والصحة . . والشهادات . . وسنكافح معاً لبناء حياتنا قطعةً
قطعةً فلماذا «تُولول» هكذا كالضعفاء؟ .

همّ بأن يجادلها في الأمر مرة أخرى . . لكنها رفعت إصبعها في
وجهه محذّرة وقالت له : لا تفسد علىّ استمتاعى بقهوتى . . وأبلغ
أبويك أن يستعدا للرحيل بسلام خلال يومين لأننا سنتزوج يوم الخميس
القادم بإذن الله .

فلم يملك إلا أن يتنازل عن أية معارضة . . وراح يرقبها وهي تحسو
القهوة بتلذذ واطمئنان عجيبين فجاش صدره من جديد بحب طاغ لها . .
وتمنّى لو كان ربُّه قد وهبه مال قارون لينثره كله فوق رأسها في هذه
اللحظة نفسها . . وهي جالسة فوق هذا المقعد الخشبي القديم . . في هذا
المقهى البلدى المتواضع !

هل تُكسب الظروف الحزينة خبرتها المؤلمة حتى للصغار الذين لا يعون جيداً حقائق الحياة؟

هكذا تساءل كمال وهو يرقب طفله الوحيد جالساً أمامه إلى مائدة الإفطار يتناول طعامه فى صمت، ويتصرف «برزانة» لا تتناسب مع عمره البرىء، يا إلهى لشد ما تغير هذا الطفل الصغير خلال الفترة الأخيرة، لم يعد يتمسك بمطالب خاصة له فى الطعام والشراب كما كان يفعل قبل ذلك، ولم يعد يرفض طبق البيض إذا قدم إليه غير مطهواً طهواً كاملاً ويعيده رافضاً أن يذوقه . . فتقوم «الجميلة الحنون» بإعادة طهوه فى المقلاة ثم تزيينه له بقطع صغيرة من الطماطم والجزر والبقدونس لتغريه بتناوله . . فيضع الشوكة فيه أولاً بحذر ليختبر صلابته قبل أن يأكله، ثم يشير إليها برأسه فى تحفظ كأنما يقول لها إنه «لا بأس به» فتتسع ابتسامتها العريضة، وتعتبر إشارته الملكية المقتضية علامة رضا تسعد بها، وتحثه على تناول طعامه كاملاً مكافأة لها على إجادة طهوها له حتى نال رضاه السامى ! .

3 لم يعد يفعل شيئاً من ذلك، ولم يعد يتمرد على احتساء كوب اللبن فى الصباح، ويتفنن فى اختلاق الأسباب الواهية للتخلص منه مهما حاولت هى أن تتفادى حججه ومبرراته، فحتى الفقايع التى تطفو فوق سطح الكوب كانت تزيلها بالملعقة قبل أن تقدم له الكوب، بعد أن اعترض عليها ذات مرة . . وحتى طبقة القشدة التى تتجمع على السطح كانت تكشطها تماماً حتى لا تُعطيه مبرراً

لرفض والإباء . . . ومع ذلك فما كانت أكثر أسبابه واعتراضاته ، وما كان أطول صبرها عليه ورفقها به . . . فلم تكن تضيق به أبداً ولا تصارحه بأنه إنما يتعلل بالأسباب الواهية تهرباً من احتساء اللبن ، وإنما كانت تسارع بابتسامتها الدائمة لتزيل ما اعترض عليه من أسباب وتقدم له الكوب من جديد ، فيبدي سبباً مختلفاً آخر ، وتسارع مرة أخرى بإزالته ليفرغ في النهاية من تناول اللبن وهي تحثه بنظراتها على تجرعه حتى الشمالة . . . وتضحك بسعادة حين ينتهي منه وتنهال عليه بالثناء والإشادة ، كأنما قد حقق بطولة عالمية باحتساء كوب اللبن .

أما «معركة» ارتداء ملابسه فكانت تبدأ منذ الصباح المبكر ، وتشهد نفس الاعتراضات من جانبه ومحاولات الإرضاء من جانبها ، وفي كل يوم له مبرر جديد للاعتراض على شيء . . . فالزى المدرسى ليس مكويًا كما يجب ولا يستطيع ارتدائه هكذا ، فلا تجيبه إلا بكلمتها الحانية «حالا يا حبيبي» ، ثم تسارع بإعادة كى الزى الذى سبق لها أن كوته فى المساء ، والحذاء ليس لامعاً تماماً ، لكن لا مشكلة فى ذلك فلسوف تعيد تلميعه على الفور حتى يبرق لونه البنى كالذهب . . . ناهيك عن متاعب تصفيف شعره واعتراضاته الوهمية عما يسببه له التصفيف من ألم فى فروة الرأس . . . إلخ ، وهي تهدده وتداعبه وتستجيب لكل مطالبه وأوامره ، كأنه ملك متوج يأمر فيُطاع فى كل شيء !

فما بالك يا ولدى قد أصبحت تقبل الآن بكل الأشياء بلا ممانعة . . . ولا اعتراض؟ وأين دلالك السابق وتبترك على كثير من الأشياء؟ وكيف أصبحت تصحو من نومك على صوت المنبه وحدك وبلا دعوة من أحد

فتنهض من فراشك بلا ممانعة ، ولا محاولة للاستزادة قليلاً من ساعات النوم اطمئنناً منك إلى أن الجالسة على طرف فراشك سوف تدعك دقائق أخرى ، لتنعيم فيها بنومك اللذيذ ثم تعود لإيقاظك برفق من جديد وهي تشاكسك وتلاعبك لتشجعك على التنبه والاستيقاظ؟ بل وكيف أصبحت تدخل الحمام وتغسل وجهك بلا مساعدة من أحد ثم ترتدى زى المدرسة متجعداً مكسراً بلا اعتراض ، وتجلس إلى مائدة الإفطار فى انتظار ما أقدمه إليك من طعام مهما كان نوعه ومهما كانت درجة طهوه أو جودته؟

إن شقيقتى الوحيدة تدعو لك الله بالنجاح والفلاح ، وتهنئني بأنك أصبحت مريحاً مطيعاً وملبياً لكل ما يُطلب منك بلا معارضة ، وترجو الله لك أن تستمر هكذا لكى أتخفف من بعض العناء ، لكنى أتألم لك وأرثى لحالك يا ولدى . . فلقد فقدت شيئاً جوهرياً لا أستطيع تعويضه لك بفقدك لعنادك الطفولى السابق ولكثرة مطالبك واعتراضاتك . . لقد فقدت عزة الإحساس بحقك على أبويك فى أن يلبيا لك كل ما تطلبه . . وعزة الإحساس بأنك ملك متوج وصاحب بيت يأمر فيطاع ولست ضيفاً عليه . . فكيف أعيد إلى روحك الحزينة هذا الإحساس الثمين؟

لقد قال لى الجميع بعد رحيلها المفاجيء الذى هزنا معا: إننى سأعانى الكثير فى خدمتك وتربيتك ، لأنك مدلل وعنيد وكثير المطالب ، ولأن الجميلة الحنون قد أسرفت فى رعايتها وتدليلها لك ، فنشأت صعب الإرضاء وقليل الصبر على الأشياء . . ونصحونى جميعاً بأن أرجع

للإقامة فى بيت أمى لتشاركنى تحمل عناء رعايتك وتخفف عنى متاعبها ،
لكنى رفضت أن أهجر العش الصغير الذى شهد سنوات سعادتنا معا نحن
الثلاثة . . ورفضت أن أنام على فراش آخر سوى الفراش الذى جمع بينى
وبينها سنوات جميلة من سنوات العمر ، وفضلت العودة إلى مسكننا بعد
فترة الإقامة الضرورية الأولى لك فى بيت جدتك ، ورفضت التراب عن
الأثاث الأنيق الذى اختارته هى بذوقها الرفيع ، وفتحت الستائر المسدلة
ليرجع الضوء إلى البيت الحزين ، وأعددت لك غرفتك وفراشك . .
وقلت لك إن الأيام لن تفرقنا أبداً بعد أن حرمتنا الأقدار ممن كانت تشع
علينا من حنانها ما يغمرنا معاً بإحساس الدعة والأمان ، وحاولت فى
أيامنا الأولى معاً أن أقلدها فى رفقها بك ورعايتها لشئونك بل وفى
مداعباتها أيضاً لك ، وهى تحاول إغراءك بشرب كوب اللبن وارتداء
ملابس المدرسة . . إلخ فكنت أكاد أشعر بك وأنت تقول لنفسك :

هيهات يا أبى أن يستطيع «التمثيل» تقليد الحقيقة .

ومع ذلك فقد حاولت وتحملت وصبرت فى البداية على تلبية مطالبك
مهما كانت غريبة أو غير ضرورية . . وأصبحنا نخرج معاً فأصطحبك
إلى المدرسة ، وأدعك بها ثم أتوجه إلى عملى . . ومهما كانت شواغلى
فلقد كنت أضحى بكل شئ لألحق بموعد خروجك من المدرسة ، وأرجع
بك إلى البيت ، ونظل معاً حتى صباح اليوم التالى نعد الطعام ونأكله
معاً . . ونرتب البيت ونشرب الشاي و«نذاكر» معاً ، ونشاهد التلفزيون
أو نخرج إلى «السوبر ماركت» لشراء متطلبات حياتنا أو نخرج معاً إلى
زيارة أسرتى أو أسرة أمك ، ثم ننام فى وقت واحد تقريباً ، فأجلس إلى

جوار فراشك حتى يداعب النوم أجفانك وأنسحب إلى فراشى فأستسلم للنوم بعد لحظات، ويبدأ يوم جديد في حياتنا المشتركة، وحين تلح على جدتك لوالدتك بأن أدعك في ضيافتها بضعة أيام. . أشعر بوحشة شديدة في غيابك، ولا أطيق البقاء في المسكن الخالي، فأهرع للإقامة في بيت أمى، ولا أشعر بالأمان إلا حين أستعيدك ونرجع معاً لحياتنا في مسكن الذكريات.

ويوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر بدأت ألاحظ أنك تتخلى تدريجياً عن عنادك السابق. . وطلباتك التي لا تقبل التأجيل، وعن مراوغاتك لى في تناول اللبن والطعام وارتداء زى المدرسة، وعن مطالبك بشراء الجديد من اللعب دائماً أو الذهاب إلى السينما. . أو مدينة الملاهى فى كل الأوقات ومهما كانت الظروف.

بدأت تتخلى عن كل هذه الأشياء ولا تلح على فى طلب شىء ولا تبكى إذا رفضت لك طلباً أو اعتذرت باستحالته أو نسيت تلبيته. . وبدأت تظهر عليك علامات الفهم المؤلم والاستيعاب المبكر وتقدير الظروف. . فمن أين اكتسبت هذه «الحكمة المؤلمة» يا ولدى الصغير؟ وأين شقاوة الأطفال فيك، وعنادهم ودلالهم وتشبثهم بما يريدون؟ وماذا قالت لك جدتك لأمك أو جدتك لأبيك، خلال زيارتك لهما؟ هل طلبتا منك أن تكون مطيعاً. . مهذباً. . مريحاً قليل المطالب مع أبيك حتى لا تُضاعف من أحزانه ومتاعبه؟

ومن قال لك ولهما يا ولدى إننى أريدك طفلاً كسير الخاطر يقبل كل ما يقدم له. . ولا يعترض على شىء ولا يرهق أباه بمطالبه ورغباته؟

لا تستجب لنصائحهما يا ولدى مهما كانت دوافعهما المخلصة وعُد
إلى دلالك وتمردك وعنادك وصخبك وضجيجك، فلست أريدك طفلاً
صامتا كسير الخاطر، فالأطفال لا يصمتون إلا حين تثقل الأحزان قلوبهم
البريئة، ولقد خسرتنا معا تلك الجميلة الحنون التي كانت ترعانا معا في
معركة قصيرة مع مرض غادر قضى عليها في أيام، ونحن نترقب معا
رجوعها إلينا باسمه ضاحكة كعادتها، فإذا بنا نفجع معا بأن طائر الحنان
الذي كان يظلل حياتنا بجناحيه قد طار إلى السماء البعيدة ولن يرجع
لعشه مرة أخرى، فلا تزد من أحزاني بانكسارك الغامض هذا ولما يمض
سوى عام وبضعة شهور على غيابها، كأنما قد أدركت بفهم، لا ينبغي أن
يتاح لك في سنك هذه، أن الظروف السعيدة قد ولت إلى الأبد. . وأن
«الظروف» لم تعد تسمح لك بما كانت تسمح به في ماضي الأيام، لقد
تغيرت الظروف حقاً، ولكن ليس إلى الحد الذي يحرمك من حقوقك
كطفل ينبغي له أن يلهو ويصخب ويعاند في بعض الأحيان.

. . ثم من الذي ينبغي له أن «يعطف» على الآخر أهو أنا أم أنت؟

إذن فكيف أشعر وكأنك تحس تجاهي بالعطف. . وتشفق عليّ من
وحدتي وتفرغى لرعايتك «فتنصحنى» بأن أرجع للخروج والذهاب إلى
المقهى في المساء، لأتسلى بلعب الطاولة مع أصدقائي كما كنت أفعل في
الأيام الجميلة، وتشجعني على ذلك بأن تؤكد لي أنك تستطيع «رعاية
نفسك» ومشاهدة التلفزيون في أمان إلى أن أعود؟.

بل وكيف يا ولدى هداك عقلك البريء إلى أن «تعرضني» على
مدرسة اللغة العربية بفصلك، وتنسب إليّ مميزات وصفات لا أدعيها

لنفسى؟ لقد طفر الدمع من عيني تأثراً لحالك وحباً لك حين استدعتنى
ناظرة مدرستك، وأسرت إلى منذ أيام فى عطف بأنك قد سألت
مدرستك الشابة الرقيقة . . هل هى متزوجة أم لا، وحين أجابتك رغم
دهشتها بالنفى فوجئت بك تعرض عليها أن تتزوج أباك، لأنه كما قلت
لها طيب ووسيم ومؤدب ولا يغضب من أحد ولا يضرب أحداً، ويغسل
ملابسه بنفسه ويطهو الطعام ويكنس الشقة ويبكي أحياناً فى صمت وهو
يشرب القهوة فى الشرفة، وينام فى فراشه وحيداً كل ليلة ويحتاج لمن
تخفف عنه هذه الأعباء .

لقد استدعتنى ناظرة مدرستك لتلفت نظرى إلى استشعارك للوحدة
والخوف والقلق على أبيك، ولتطلب منى أن أغرس إحساس الأمان
والاطمئنان فى نفسك، ووعدها بمضاعفة جهدى لذلك وشكرتها على
اهتمامها بأمرى وحاولت بعد ذلك أن أشيع جو البهجة والمرح فى حياتك
ودعوتك لمشاهدة السيرك أول أمس، وتعمدت أن أبدو أمامك ضاحكا
ومبتهجاً باستمرار . . فهل نجحت فى إيها بك بذلك يا ولدى؟ وهل
نجحت فى بث الطمأنينة والأمان فى نفسك؟ .

إذن . . فلماذا تبدو صامتاً وحزيناً هذا الصباح؟ ولماذا تناولت طعامك
دون شكوى من أى شىء ودون ممانعة أو تعلل بالأعذار؟ .

ألا ترانى قادراً على هدهدتك . . وملاعبتك . . وتحمل مراوغاتك،
حتى تطعم طعامك وتشرب لبنك كما كانت تفعل الجميلة الحنون معك
قبل أن ترحل عنا إلى الأبد؟

إننى أحاول أن أكرر معك ما كنت تفعله . . لكن عينيك الحزینتین
تقولان لى فى صمت : لا تتعب نفسك یا أبى . . فأنت لست هسى . .
وأنا لم أعد ذلك الطفل المدلل العنید . . فإلى متى یستمر هذا الانكسار
المهزوم فى أعماقك یا ولدى؟

همَّ بأن یسأله هذا السؤال ، ففوجئ به ینهض من المائدة حاملاً حقیبته
المدرسية وهو یقول له : هیاً بنا یا أبى . . وإلا تأخرت عن موعد المدرسة ،
فانتفض الأب واقفا بارتباك ثم حمل حقیبة أوراقه السوداء . . وأمسك
بید طفله الصغیر واتجها معاً إلى باب الشقة . . وكلاهما یفكر فى شأن
صاحبه ویشعر تجاهه بشىء من العطف والرثاء! .

من مجلسه المعتاد كل مساء راح يتابع الأحداث في استغراق شديد متلهفًا إلى ما يُبدد وحشته ووحدته الداخلية عن قرب، يرقب المشاعر وهي تنمو وتتعمق، وبإشفاق يتوجس لكل ما يهدد صفوف القلوب البريئة، ويحزن للغدر والخيانة والخصام وسوء الفهم . . ويفرح لانجلاء الحقيقة وانتصار الحب على الشر والخديعة، ويسعد بلحظة التنوير التي يكتشف فيها المحبَّان أن كلا منهما، ورغم ما جرى، لا يحب سوى الآخر ولا يسعد إلا معه، أما حين يلتحقان بعد الفراق فينظر كل منهما للآخر في ضعف وأمل معترفًا بالهزيمة راغبًا في أن يرمى على صدره لولا بقية شك في ألا يكون ذلك هو التصرف المناسب . . فيجد لدى الآخر نفس الرغبة مكبَّلة بنفس التردد . . ويتشجع كل منهما بما يحسه ويقتربان ثم يتعانقان، فيتشبث كل منهما بالآخر كأنما يطمئن نفسه إلى أنه حقًا بين يديه ويقول له : كنت ضائعًا دونك فلا تدعني للضياع مرة أخرى .

أما حين يحدث ذلك وتختلط دموع الحب بدموع الفرحة بالنجاة من الهاوية السحيقة فلقد كانت دموعه هو الآخر تسيل معهما بلا إرادة . . فيتمتم في مجلسه بالدعاء الخافت للمحبين ألا يفرق الله جمعهما مرة أخرى، وبأن تطيب لهما الحياة حيث يكونان . . ثم ينهض من مجلسه متعزياً بما شاهد عما يفتقد وأملًا في رحمة الله ألا تنساه إلى النهاية .

أما هذا المساء فلقد تسارعت الأحداث أمامه على غير انتظار، فلم يكد يسعد بمتابعة سمات الحب الرقيقة بين المحبين اللذين

جمعت بينهما الأقدار بعد تطورات عديدة، ويرقب باستمتاع غريب مداعباتهما ومشاعباتهما حتى انفجرت الأزمة على غير انتظار، فلقد تلقى الزوج مكالمة متأخرة من رئيسه فى العمل ينبئه فيها بضرورة سفره فى الصباح إلى مهمة تستغرق بضعة أيام خارج المدينة . . واكتأبت الزوجة الشابة التى تنتظر نهاية الأسبوع ليخلو لها زوجها من كل ارتباط؛ إذ كعادتها تنهض صباح يوم الإجازة مبكرة فتدخل إلى الحمام وتخرج منه متألفة، فترتدى البنطلون والبلوزة فسدقية اللون التى يحبها زوجها، وتذهب إلى المطبخ فتعد إفطار يوم الإجازة المميز . . وتضعه على مائدة بالشرفة، ثم ترجع إلى زوجها النائم فى فراشه بكوب عصير البرتقال، فتوقظه بمداعباتها الجميلة ويفتح الرجل عينيه فيرى الوجه الجميل الذى يعشقه، فيجذبها إليه وتسقط عليه محذرة من انسكاب البرتقال عليه كما حدث مراراً من قبل ثم تدفعه إلى الحمام دفعاً وهو يرشف عصير البرتقال ويعابثها، ثم يخلوان إلى إفطارهما فى الشرفة ويستعدان لقضاء يوم الإجازة فى المكان الذى يتفقان عليه، وسواء خرجا إلى النادى أو إلى وسط المدينة أو إلى رحلة قصيرة خارجها أو بقيا فى البيت، فالأوقات سعيدة والقلب مُترع بحب الآخر والاحتياج إليه . . والدنيا كلها شخص واحد هو شريك الحب والحياة، فالأطفال لم يجيئوا بعد . . ولا شىء يشغل القلب عن ساكنه سواه . . فما معنى هذا التكليف المفاجئ الذى يفرق بينهما بغير إنذار؟

قطبت ساهمة فقال لها زوجها: تعالى معى . . سنقيم فى فندق صغير على الشاطئ، وستتسلين بالجلوس فى شرفته المطللة على البحر خلال انشغالى بالعمل حتى أرجع إليك . .

فأجابته قانطة : لم يبق لى رصيد من الإجازة، فقد استهلكته كله فى سفریاتك السابقة، وأخشى أن أفقد عملى إذا طلبت إجازة استثنائية .

لم يعد هناك مفر من الفراق المؤقت، وسلمت الزوجة الشابة بذلك، واغتصبت ابتسامة شاحبة وزوجها ينظر إليها فى رجاء واعتذار .

ثم توالى الأحداث بعد ذلك بسرعة أزعجت من يرقبها من مجلسه فى صمت وإشفاق، فسافر الزوج إلى مهمته بمدينة بعيدة، وانشغل بالعمل صباحا ومساء، وتطلبت الظروف أن يجتمع بسكرتيرة مدير فرع الشركة بالمدينة ساعات طويلة فى المساء لإعداد التقرير النهائى عن مهمته . . . وتعثرت المهمة لأسباب طارئة، فمدّ إقامته فى المدينة بضعة أيام أخرى واتصل بزوجه الرقيقة معذراً بركة أمام السكرتيرة، وتقبّل عتابها لإنهاء المهمة قبل نهاية الأسبوع . . . فسألته السكرتيرة مبتسمة :

- إلى هذا الحد تحبها؟

فأجابها باقتضاب :

- وأكثر .

فنظرت إليه نظرة طويلة ثم تمتت : كذلك كنت أحب زوجى حتى حدث ما حدث ! .

همّ بأن يسألها عما حدث . . . فكاد من يرقب الأحداث فى صمت وإشفاق أن ينهض من مقعده راجياً الزوج ألا يسألها عن حياتها الشخصية، لكيلا يفتح باباً غير مأمون العواقب للاقتراب منها . . . فالمرأة

مطلقة ووحيدة وشهية ومتعطشة للحب، وهي كما بدت له معجبة بهذا الزوج الوسيم، وقد أثار حبه لزوجته الذى لمستته خلال الأيام الماضية غيرتها أو على الأقل فضولها. . فلماذا تزيد النار اشتعالا يا صديقى بالحديث الشخصى فى غير شئون العمل؟

لم يستمع الزوج للتحذير المخلص للأسف، وانساق وراء تداعى الحديث، فسألها عما حدث وروت له قصتها مع زوجها. . وكيف أحبته حباً مخلصاً؛ فإذا به يغدر بقلبها ويرتبط بفتاة صغيرة ويطلقها ليتزوجها، ودمعت عيناها وهي تحكى له عن مأساتها فقدم لها منديلاً ورقياً ثم اقترح تأجيل العمل لوقت آخر، لكنها تمالكت نفسها سريعاً وأصرت على مواصلته وتأخر الوقت بهما وأراد حارس الأمن إغلاق المكاتب، فإذا بها تعرض عليه أن يستكملا التقرير معاً فى مسكنها القريب! .

فهمّ مراقب الأحداث بالوقوف مرة أخرى معترضاً ومحذراً، لكن الزوج الشاب قبل دعوة السكرتيرة المطلقة للأسف وذهب معها إلى بيتها، وتطورت الأحداث بينهما إلى نتيجتها المتوقعة، فأمضى الرجل ليلته فى مسكنها، وفى الصباح تنبه إلى المنزل الخطير الذى هوى إليه. . فارتدى ملابسه حزيناً وغادر المسكن عائداً إلى فندقه وهو يشعر بالإثم والتخاذل.

وتعمد بعد ذلك ألا ينفرد بالسكرتيرة أبداً رغم محاولاتها المتكررة معه، وراح يطلب زوجته ويبيها حبه وأشواقه، كأنما يطمئن نفسه إلى أنها لم تعرف شيئاً مما حدث، وتعجل إنهاء مهمته بكل وسيلة ممكنة حتى

أنجزها وحزم حقيبيته واستعد لمغادرة الفندق ؛ فإذا بالسكرتيرة تنتظره فى البهو وتسأله باضطراب : لماذا تتهرب منى ؟

اعتصم بالصمت متجنباً أى مزيد من التورط معها فقالت له :

لقد حدث ما حدث بيننا رغماً عنا ، ولست أريد هدم أسرتك أو تدمير حياتك ، لكنك الرجل الوحيد الذى دخل حياتى منذ طلاقى من زوجى ، وليس هذا بالأمر الهين فلا تحرمنى فقط من الحديث معك تليفونياً كلما سمحت الظروف .

فلم يجد الرجل مفراً من وعدها بذلك وركب القطار عائداً إلى مدينته وزوجته ، فوجدها فى انتظاره فى محطة القطار جميلة كعهده بها ومحبة ومخلصة ، فاندفعت إليه والدموع تطفر من عينيها وتلقاها بين أحضانه ومشاعره تتضارب بين الفرحه بلقائها والإحساس بالإثم تجاهها والخوف مما تحمله له الأيام معها .

وبصعوبة شديدة تغلب الزوج الشاب على مخاوفه واستعاد إحساسه بالأمان مع زوجته . . . ورجعت طيور الحب تغرد فى عشهما فى صفاء ، فلم يمض شهر حتى فوجىء بالسكرتيرة المطلقة أمامه فى مكتبه ! لقد جاءت إلى المدينة فى مهمة عمل وطلبت من رئيسه أن يكلفه بمساعدتها فيها لسابقة تعاونهما معاً فى العمل ، وحاول الزوج الاعتذار بشتى الحيل فلم تتح له فرصة للفرار ، واضطر بالفعل لمشاركتها إعداد التقرير المطلوب ، فلم تدع وسيلة لإغرائه واجتذابه إليها دون استغلال ، ودعته لزيارتها فى الفندق الذى تقيم فيه فاعتذر بجفاء ، وتكررت المحاولات ،

وتكرر الصد فتحول التودد من جانبها إلى غضب وجفاء وقالت له
بتهديد:

لست امرأة لليلة واحدة . . ولا أقبل أن تعبت بي . . فيما أن تثبت
«احترامك» لى . . وإما أن تدفع ثمن ذلك غالياً .

فلم يحر جواباً وانصرف مهموماً .

وتصاعدت الأحداث بعد ذلك بسرعة الصاروخ ، فراحت تطارده فى
كل مكان وتتصل به تليفونياً فى مسكنه فى أوقات متأخرة من الليل ، لتشير
شكوك زوجته فيه ، ونجحت فى ذلك فعلا ، فعلت سماء الحب بعض
الغيوم ، وتحمل الزوج الشاب كل المتاعب أملاً فى انتهاء مهمة السكرتيرة
وعودتها إلى مدينتها . . فإذا به يعلم بأنها قد تقدمت بطلب لنقلها إلى
المقر الرئيسى للشركة ، فازداد تشاؤماً وتوجساً من المستقبل . وبعد أيام
أخرى فوجىء بزوجه الشابة الجميلة تنظر إليه دامعة ثم تقول له فى
أسى:

- كيف استطعت أن تلمس امرأة أخرى وأنا أحمل لك كل هذا
الحب؟!!

فأحنى الرجل رأسه عاجزاً عن كل جواب . . وهمّ بالاقتراب منها
معتذراً ، فتراجعت بعنف وقالت له بغضب هائل : لا تقترب منى!

ثم جمعت ملابسها وغادرت المسكن ، وفشلت كل الحيل معها
لإرجاعها أو إثنائها عن طلب الطلاق .

وواجه الرجل أقداره فى استسلام فاستجاب لمطلبها وطلّقها، وحقق لها كل رغباتها أملاً فى أن تنجح الأيام فى التكفير عن خيانتة لها ذات يوم، وتحوّل إلى السكرتيرة التى هدمت سعادته بشراسة، فهددها بالقتل إن لم تبتعد عنه وتكف عن ملاحقته، حتى استشعرت جدية التهديد وعمق الكراهية، فيئست منه تماماً وسحبت طلب النقل ورجعت إلى مدينتها متشفية فى الرجل الذى رفض قلبها.

وعاش هو وحيداً يذهب إلى عمله ويرجع منه بلا روح ولا حياة، وكلما سنحت له فرصة لرؤية زوجته السابقة جدّد اعتذاره لها ورجاها العودة إليه، فلا يجد لديها سوى الرفض والجفاء، وسلم أخيراً باليأس منها، وقرر أن يرحل عن المدينة كلها ويبدأ حياة أخرى، فطلب الانتقال إلى أحد فروع المؤسسة البعيدة، وأجيب إلى طلبه على الفور، واستعد للرحيل فجمع ملابسه وأغلق مسكنه الذى شهد أجمل أيام العمر. ثم أراد أن يرمى سهمه الأخير، فانتظر أمام باب عملها ليودّعها ويرجوها أن تحاول النسيان مرة أخرى، فإذا بها تخرج فى صحبة شاب من زملائها تتحدث إليه وتضحك معه. وبقوة الألم وحدها اعترض طريقهما «راجيا» منها أن ينتحى بها جانباً ليحدثها للمرة الأخيرة لمدة دقيقة واحدة ووقف الشاب رافضاً الابتعاد، حتى أشارت له فابتعد ووقف ينتظر انتهاء الحديث وسألها زوجها السابق فى حسرة: من هذا الشاب؟ وأجابته باقتضاب: زميل تقدم لخطبتي وأفكر جدياً فى قبول عرضه!

وأحس بطعنة سكين غائرة فى صدره وابتلع ريقه بصعوبة وسألها:

- هل تحبينه؟

فأجابته فى مرارة :

- وماذا أفادنى الحب قبل ذلك ؟

فعجز عن أى دفاع وأنهى إليها بإيجاز خبر رحيله عن المدينة . . ثم مدَّ لها يده بورقة صغيرة تحمل رقم تليفونه فى مقره الجديد طالباً منها أن تتصل به فى أى وقت، إذا احتاجت لمن يقف إلى جوارها بإخلاص فى أية محنة تعترض حياتها، أو إذا شعرت ذات يوم ولو بعد سنوات بأنها قد صفحت عنه وترغب فى استئناف الحياة معه، لأنه سوف ينتظرها، ولن يرتبط بامرأة أخرى مهما طال الزمن، ونظرت الزوجة المطلقة إلى يده الممدودة إليها بالورقة فى جمود ولم تمدَّ يدها لالتقاطها.

فخفق قلب من يراقب الأحداث على البعد من التأثير وتمتم مخاطباً الزوجة الشابة : بربِّك خُذِها منه . . خُذِها يا سيدتى فهو يحبك ونادمٌ أشد الندم على خطيئته فى حقك، فلا تُغلقى فى وجهه باب الرحمة للنهاية . . ولا تعاندى قلبك الذى يحبه، فسوف تسيئين إلى نفسك كثيراً بالارتباط بالشاب الآخر، فاسمعى نصيحتى، وابتلعى كبرياءك ولا تحكمى على نفسك بجحيم الحياة مع من لا تحبين، فحتى معاناتنا مع من نحب أرحم كثيراً من عذاب الجحيم مع من لا تُحبين ولا تطيقين لمسه أو اقترابه منك .

ولم تسمع الزوجة الشابة تتمته المشفقة بالطبع لكنها نظرت إلى يد زوجها السابق مرة أخرى . . ورفعت عينيها إلى وجهه فرأت نظرة الانكسار والرجاء والاستجداء فى عينيه، فمدت يدها بتردد إلى الورقة،

ففوجئت بزوجها يمسك بيدها ويرفعها إلى فمه ويقبلها في اعتذار يُغنى
عن كل كلام، وأحست بدمعة ساخنة على ظهر يدها تلسعها، وأحست
عمق الألم الذي يُعانيه . . فلم تقو على مواصلة الاحتمال، وأطلقت
العنان لدموعها الحبيسة . . ولم تبد أى اعتراض على اجتذابه لها ببطء
لتغوص في أحضانه، وهو يبكى معتذراً ومؤكداً لها أنه لم يحب سواها،
ثم سارت إلى جواره ملتصقة به . . والشاب الآخر يرى ما يجرى ويفهم
مغزاه، فيمضى مبتعداً وموقناً أن كل ما ذكرته له عن شكها في قدرتها
على بدء حياة أخرى مع غير زوجها كان صحيحاً .

والجالس يرقب الأحداث في صمت، يترقرق الدمع في عينيه في
ابتهاج غريب، ويجيش صدره بالانفعال لاجتماع الحبيين مرة أخرى بعد
سحابة الفراق . . وصوت صامت في أعماقه يهتف بإخلاص : فليسعد
الله المحبين . . فليسعد الله المحبين !

فإذا بصوت كئيب صادر من اتجاه باب الغرفة التى يجلس فيها يخرج
من استغراقه الممتع فى أحوال الحب وتطوراته، ويقول له بلهجة مستنكرة
: ألم يحن الوقت بعد لتنام وتغلق هذا «الفيديو» اللعين الذى تتجمد
أمامه كل ليلة حتى الفجر، وتنفق الكثير على أفلامه ثم تشكو بعد ذلك
من فاتورة الكهرباء ومطالب البيت . . وكثرة النفقات !؟

فلعن فى سره كل ما يمثله هذا الصوت الكئيب فى حياته من معان
ورموز، وأشار لصاحبه بأنه سيفعل ما تريد طالباً منها برجاء أن تعود
لمواصلة نومها السعيد، وجمد فى مكانه حتى تحركت راجعةً إلى غرفة

نومها، وهي تتمم بما لم يسمعه، فانتظر قليلاً حتى تبددت سحابة الهواء
الثقيل الذي جلبته معها إلى الغرفة فكاد صدره يختنق به، ثم ضغط على
زرار الجهاز، ليستعيد مشهد عودة الصفاء إلى القلوب المحبة أملاً أن
يرجعه إلى عالم الحب البديع الذي لم يعد يعرفه أو يستشعره أو يتعزى به
عماً يضيق به صدره، إلا في هذه الجلسة كل مساء أمام هذا الجهاز
العجيب!

صغيرة . . . جميلة . . . ووديدة . . . فماذا ينقص القلب البريء
لكى يهنأ بالحياة ؟

ولماذا تبدو فثقله دائماً بالهموم ، كأنما قد خبّرت الدنيا وعانت
آلافها؟ أم هل صدفت فى حبها الأول وعرفت فرارة الخديعة فى
الشباب الباكر؟ وهل ذاقت قسوة الرفض ممن تحب وجربت عذاب
الشك فى النفس؟ هل قست عليها ظروف الحياة فأورثتها فيلاً
غريزياً للحزن والشجن؟

لا يعرف حتى الآن . فهى وافدة جديدة على الإدارة التى
يعمل بها ، ولم تمض أيام على استلافها العمل فنذ دخل المدير إلى
الصالة الكبيرة التى تتناثر فيها فكاتب الموظفين وفعه هذه الفتاة ،
ثم اتجه إليه باعتباره أقدم زفلائه وأكبرهم سنًا ، وقدفها إليه وطلب
فنه فساعدتها ورعاية خطواتها الأولى فى العمل ، قائلاً له إنها ابنة
صديق قديم راحل ثم انصرف ، فصافحها يوفها بترحيب فحيته
بتهيب واحترام ، ودعاها للجلوس أمام فكتبه ، فجلست فنكمشة
كالقطة الخائفة . . . سألها عن اسمها وسنها وفؤهلها الدراسى
وأجابته بصوت خافت ، ثم تحير كيف يبدأ تدريبها على العمل ،
فاستأذنها فى الغياب لحظات ، وتوجه إلى فكتب المدير وسأله عما
ينصح بإعطائه فن فهمام فقال له المدير : لا يهمنى فاستقوم به فن
عمل . . . فلقد عيبتها لأساعددها وأفها على الحياة وفاء لأبيها زفيلى
القديم فى بداية حياتى العملية . . . وكل فإيهمنى هو أن تقربها فنك
وتحميها فن الذئاب ، وتزيل فخاوفها فن الحياة .

فعاد فن عند فديره وهو أكثر حيرة .

قرر أن يكتفى فى اليوم الأول بتعريفها بطبيعة العمل فى الإدارة فتحدث إليها عنه . . . وعرفها بالزفلاء . . . واصطحبها إلى الأرشيف . . . وعرفها بنظام العمل والعافلين فيه ، ثم رجع إلى فكتبه فجلست أفام فكتبه حانية الرأس حتى قال لها برفق :

- يكفى هذا بالنسبة لك اليوم وتستطيعين الانصراف والعودة فى الصباح ، فشكرته هافسةً وانصرفت ، وتابعها بنظراته وهى تتجه إلى باب الخروج ، وازداد إحساساً بالإشفاق عليها .

* *

أزفت ساعة الخروج فن العمل . . . فتسابق الزفلاء إلى باب الهيئة . . . وخرج هو فتثاقلاً . . . وعند باب المصعد التقى بزفيل قديم فن إدارة أخرى ، فتصافحا وركبا المصعد فعا وترافقا فى الطريق بضع خطوات ، إلى أن جاءت نقطة الافتراق فسأله الزفيل : ستذهب إلى نفس المكان كالعادة ، فلم يجد دافعاً للكلام وأجابه بابتسافة حزينة ، فودَّعه الزفيل واتجه إلى فحطة المترو . . . وانحرف هو إلى الشارع الجانبى قاصداً وجهته اليوفية .

إلى نفس المكان كالعادة؟ . . . نعم إلى نفس المكان ، وأين يذهب فن كان وحيداً فى الخافسة والخمسين فن العمر فثلى لا زوجة تنتظره فى البيت فثلك . . . ولا أبناء كالذين تتشكُّون فن فتاعبهم ونفقاتهم كل يوم . . . ولو جربتم الوحدة لعرفتم أى نعمة تتضجرون فيها . . . وقد

فضت الأيام ولم يعد في العمر ولا في القلب فتسع لحب أو زواج . .
حتى الإخوة باعدت بيني وبينهم الحياة، فهاجر شقيقى الأوسط إلى
أفريكا . . ورحلت أختى الوحيدة فع زوجها إلى دولة عربية . .
وتزوجت الصغرى فى أقصى البلاد حتى لتمضى الشهور بل والأعوام
أحياناً قبل أن يزورنى أحدهم . . نعم إلى أين يذهب فن تبدد العمر فن
بين يديه هدراً، فأضاع حب الجافعة بترده أفام فستولية الزواج، وأضاع
حب الرجولة بالشك فى إخلاص فن يحبها، وأضاع الكرافة بتدلّيه فى
حب فن لم تحبه والتوسل إليها لأن تتزوجه فلم تقبل وتزوجت غيره .

بلغ فى فسيره شارع عرابى . . فانتقل إلى الرصيف الأيمن وواصل
السير حتى اقترب فن فقصده وانحرف داخلاً إلى البار الصغير . . واتجه
إلى فائدته اليوفية بجوار الحائط . . لم يكن فى البار أحد سوى النادل
العجوز فحيّاه بيده، ورد النادل التحية فبتسماً، وبعد قليل جاءه بطبق
القول النبات وزجاجة بيرة . . وهو يسأله عن الأحوال :

ككل يوم يا عم فرغلى . . لا جديد ولا غريب تحت الشمس .

عاد النادل إلى موقعه، فالتقط بعض حبات الفول وأكلها . . أول طعام
يدخل إلى معدته هذا اليوم وكل يوم . . ففى مسكنه فى الصباح لا يشرب
سوى الشاي . . وفى العمل لا يشرب إلا القهوة، ويدخن طوال الوقت،
فلا عجب إن بدا ممصّراً رغم ما يتجرعه من زجاجات الجعة كل يوم .

سيمضى فابقى فن نهاره فى هذا المكان، يرقب الطريق فن فرجة بين
الباب والبارفان الذى يستر صالة البار عن أعين المارة . . وسيشرب ثلاث

زجاجات أو أربعمًا فن البيرة . . وسيأكل إذا اشتد به الجوع وجبة خفيفة
فن لحم الرأس أو فن الجبن والسميط ، يطوف بها بائع جوال بين البارات
وسيتبادل التحية فع بعض الرواد اليوفيين فثله ، وربما تبادل فعهم التعليق
على الأحوال الجارية . . أفا الغرباء فلا يجب الحديث إليهم أو التعرف
بهم ، وسيعود إلى فسكنه الخالى فى التاسعة أو العاشرة فثقل الرأس ،
فيقرأ فى فراشه قليلاً أو يشاهد التلفزيون بعض الوقت ثم يستسلم لنوم
ثقيل . أيافه نسخ فتكررة فن أصل واحد لا يتغير . . فأين العزاء لمن كان
داؤه الوحدة وخواء القلب .

* * *

بعد أيام التعارف الأولى جيء بمكتب صغير للموظفة الجديدة ،
ووضع بالقرب فن فكتبه ، وكلفها هو بمساعدته فى بعض الأعمال التى
يقوم بها ، فكأنما قد أصبحت فساعدة أو سكرتيرة شخصية له ، وأيد فدير
الإدارة فنصور بك هذا الوضع لثقتة فى أخلاقه وحسن فعافلته للبشر .

الوافدة الجديدة اسمها سماح ، وفى العشرين فن عمرها ، حصلت
على شهادة فوق المتوسطة ، وخرجت للعمل لتساعد أسرتها على
استكمال المشوار . . تبدو دائماً خائفة وفهموفة ؛ فإذا اقترب فنا زفيل
وتحدث فعها فى شىء خارج شئون العمل ، اتجهت بنظراتها تلقائياً إلى
الأستاذ سليمان «راعيها» الجالس فى هدوء إلى فكتبه كأنما تستشيرهُ : هل
تجيب عن سؤال الزفيل أم تتجاهله فيطمئنها بنظرته وهزة رأسه إلى أنه
لا ضير فى أن يتسلى الزفلاء فن حين لآخر بالحديث عن شئون الحياة !

فإذا لاحت فن زفيل بادرة خروج على المؤلف فعها تجلّى الذعر فى
فلافح وجهها الجميل وعجزت عن النطق . . فينجدها راعيتها بحزم
يستدعيه عند الحاجة . . ويزأر :

- أستاذ فلان . . عد إلى فكتبك . . ولا تُعطل الأنسة عن عملها .

فيستجيب الزفيل المشاكس بلا اعتراض . . وتتفس سماح الصعداء
وترفقه بافتنان .

الجميع فى هذه الإدارة يحبونه ، فإن لم يحبوه فهم على الأقل
لا يكرهونه ، وحتى إدفانه للجنة الذى يتجلى فى احتقان وجهه يثير
لديهم الإشفاق عليه أكثر مما يثير انتقادهم له . . وحتى الأستاذ جمال
الذى لم ينبجُ أحد فى الهيئة كلها فن لسانه أو أحقاده . . يكفّ لسانه عنه
ويقبول حين يجىء ذكره إنه أحب وأطيب قلب فى هذه الإدارة
«اللعينة» . . فن بعده هو بالطبع ! فشاء له القدر أن يكون «الناجى»
الوحيد فن لسان هذا الموظف الحقود . . ولا عجب فى ذلك ، فهو فلجؤه
الوحيد الذى يقرضه فى الملمات فاحتاج إليه فن نقود حين يرفض
الجميع إقراضه ويطيل الصبر عليه حتى يسدد دينه .

وكذلك يفعل فع فعظم الزفلاء الآخرين الذين يتشكون فن ارتفاع
الأسعار وطلبات الأبناء فلا يرد طلباً لأحد . . وفرته الكبير فع قلة
احتياجاته نسبياً عن أصحاب الأسر فع فالتقاءه فن هبات غير منتظمة
فن شقيقه المقيم فى أفريكا يُسر له حياته بما يسمح فن حين لآخر بأن
يستجيب لطلبات قروضهم الصغيرة ، حتى فدير الإدارة نفسه لجأ إليه

أكثر فن فرة وأقرضه في فنانسة زواج الابنة الكبرى ، وحين احتاجت زوجته إلى جراحة ضرورية ، ويفعل ذلك دائماً فى صمت .

فلم يخف على الوافدة الجديدة فإ يتمتع به راعيتها فن قبول لدى الزفلاء . . فازدادت له احتراماً وتقديراً .

ويوفاً لاحظ عليها قلقها واكتئابها . . فألحَّ عليها بالسؤال عما يشغلها . . وحكت له أن شقيقها الأوسط لم يدفع رسوم فعنده العالى حتى الآن . . والأسرة فى ضيق فن أفرها . . فسألها فى هدوء : وكم تبلغ هذه الرسوم؟

وأجابته بسلافة نية : حوالى 300 جنيه .

فقال لها فى صوت خفيض : سيكون لديك المبلغ غداً . . فلا تحملى لذلك همماً .

وتولتْها دهشة طاغية . واعتذرت له على الفور عن عدم قبول المبلغ لأنها لا تستطيع رده . . فدعاها للجلوس أفام فكتبه وحدثها طويلاً عن تقديره لها ورغبته فى مساعدتها على أفرها فؤكداً لها أن ذلك يسعده إلى أقصى حد ، ويجعل لحياته الخاوية فعنى ، وهون عليها الأفر بأنه سيتقاضى منها دينه على أقساط صغيرة كل شهر ولن يتضرر فن ذلك ، لأنه لا يحتاج إلى هذه النقود الآن . . ثم اختتم حديثه قائلاً لها :

- فاقيمة النقود إذن يا ابنتى إذا لم يستطع الإنسان أن يُنجد بها زفيلةً طيبةً فثلك فى إحدى أزفاتها؟

وحاولت الكلام فأشار إليها بيده طالباً منها الصمت وقال لها بحزم لطيف:

- عودي إلى فكتبك يا أنسة . . ولا تعطلى العمل!

فلم تتمالك نفسها فن الابتسام شاكرة وعادت إلى فكتبها فطمئنة، وفي اليوم التالي دسّ في يدها وهي تعرض عليه أوراقها فظروفاً أبيض فتناولته بحياء وهي تشكره بصوت خفيض.

وفي بار الشروق . . استرجع في جلسته اليوفية الصافرة وجهها الجميل وهي تغالب خجلها وترددها حين فدّت يدها لتأخذ منه فظروف النقود، فجاش صدره بالارتياح والابتهاج . . وقال لنفسه:

صغيرة وجميلة فلتهنأ لها الحياة فع فن يخلص لها الحب!

ولم تتغير فعافلته لها بعد ذلك في شيء . . فازدادت ثقة فيه وارتياحا واعتمادا على توجيهاته الحكيمة في شؤون العمل والحياة.

وفع فُضِيَّ الأيام ازدادت سماح اقتراباً فن رئيسها المباشر الأستاذ سليمان، فعرف كل شيء عن حياتها وأسرتها وأفها وأشقاتها، فكأنما قد عاشر الأسرة سنين طويلة، فعرف أنها كبرى أخواتها التي فات عنها أبوها وهي في الحادية عشرة فواجهت الحرفان في سن فبكرة وعرف أن خالها الوحيد هو الأفر الناهي في حياة أسرتها فع أنه لا يساعد الأسرة فادياً في شيء . . وعرف أنها صديقة أفها الأولى التي شاركتها الإحساس بالمسئولية عن الأسرة فند الطفولة، أف الإخوة الآخرون فمازالوا يتعافلون فع الحياة بخفة لا تتناسب فع ظروف الأسرة القاسية،

ويرهقون الأم بمطالبهم وغضبهم حين تعجز عن تلبيةها ، أفا القلب فلم يجد في جفاف الحياة نسمة راحة تشجعه على ممارسة ترف المشاعر ، في حين تعلقت أختها الصغرى وهي في السابعة عشرة فن عمرها بفتى فن جيرانها لم يمه بعد دراسته الجافعية ، ولا يملك شيئاً ، وفرضته على الأسرة فرضاً غير ففدرة لعجزها عن تلبية فطالب الارتباط قبل أن تعمل أختها ، فتجمع الإشفاق في عينه وهو يسألها :

- خُطبتُ شقيقتك الصغرى قبلك؟ يا له فن تسرع !

فأجابته بأن شقيقتها فدللة . . وسريعة البكاء . . فلم تشأ أن تقسو عليها وتفيقها فن أوهافها على واقع الأسرة المرير ، وإنما تجاوبت فعها ، وأقنعت أفها بإتمام الخطبة على أفل أن تتحسن الأحوال في المستقبل ، وسوف تساعدها بجزء فن فرتبها على تدبير فطالب الزواج .

فتساءل صافئاً . . وكيف يفى فرتبها الصغير بكل هذه الأعباء . . وفاذا يبقى فنه لنفسها؟

ويوفاً بعد يوم أصبحت سماح هي اهتمامه الأول في الحياة ، وأصبحت صورتها وصوتها يلازفانه في جلسته اليوفية في بار الشروق وفي فسكنه الخالي في المساء ، وأصبحت أسرتها هي عالمه الجديد الذي يتنقل في أرجائه في خياله . . فيعرف فتى تسعد الأم وتبتهج وفتى تكتئب ويتولاها الضيق . . وفتى يجيء الخال المتعجرف لزيارتهم ويأفر وينهى في حياتهم دون أن يتكلف لهم شيئاً حتى في أشد أيام المعاناة ، فإذا بادرتة أفها بالشكوى فن شىء سبقها بالشكوى فن قلة رزقه وكثرة

نفقات الأبناء واضطراره للاستدانة ليلبي فطالبهم الضرورية . . ثم يتعجل إنهاء زيارته للأسرة وينصرف فشيئاً فنأفها بالدعاء له لأنه الوحيد الذى يهتم بأفر الأسرة، وفنأخوتها الصغار بالسخط على اهتامفه بالظهور بمظهر رب الأسر دون أن يتحمل شيئاً فنأتبعات ذلك، حتى أكلاتهم المفضلة أصبح يعرفها ويعرف فواعيدها ويتخيل إفتار يوم الجمعة المميز الذى تجتمع حوله الأسرة بكافلها فى ابتهاج حقيقى حتى فى أحلك الظروف، وتطهو فيه الأم طبقها المفضل فنأفول والبيض والبسطفة .

وبعد عام فنأعين سماح بإدارته أصبح يتحدث فعها عن كل فرد فنأفراد أسرتها بما يوحى لشخصيته وتصرفاته . . وأصبحت تستشيريه فى كل شئون حياتها وأسرتها، فيشير عليها بما تثبت لها الأيام صحته وحكمته، ثم دعتة سماح للغداء فع أسرتها فى أحد أيام العطلة الأسبوعية فرحب بالدعوة التى ترقبها طويلاً، وحمل علبة فاخرة فنأ الشيكولاتة وتوجه إلى بيت الأسرة فلاحظ رثانة الأثاث!! واستمتع بروح الأسرة التى يفتقدتها فى حياته، وأحب الأم والشقيق الأوسط والشقيقة الصغرى بلا تحفظ وترك لدى الجميع انطباعاً طيباً.

ولم يمض وقت طويل حتى ردّ الدعوة للأسرة فى فسكنه وجاء بوجبة فنأ الكباب فنأ المطعم القريب، فاستمتعت الأسرة وسعد فعها بوقت بهيج، ولم تتكرر الدعوة بعد ذلك فنأ أو فنه، ورضى بذلك بعد أن حقق رغبته فى أن يرى «الأعزاء» الذين تخيلهم فراراً، ورسم لكل فنهم صورة قريبة فنأ الواقع فنأ حديث سماح عنه، وذات يوم ضبط نفسه

وهو يحلق ذقنه فى المرأة يفكر فيها ويسأل نفسه كيف ستبدو فى عينيه هذا الصباح؟

ويوفاً غابت عن الحضور إلى العمل . . فلاحظ على نفسه قلقه واكتئابه وثقل الوقت عليه حتى استأذن فديره على غير العادة فى فغادرة العمل ، وتوجه إلى بار الشروق فبدأ جلسة الشراب فبكرأ عن فوعدها .

وفى اليوم التالى جاءت شاحبة الوجه فبادرها بالسؤال عن سبب غيابها بالأفس ، وأجابته بأنها قد أصيبت بنوبة برد حادة ، ولم يقتنع قلبه بهذا التفسير ، فانتهاز فرصة عرضها بعض الأوراق عليه وقال لها: لا تبدو عليك آثار نزلة البرد . . فصار حينى بالسبب الحقيقى لغيابك أفس وتأكدى فن استعدادى لمساعدتك فى أى شىء فهما كان شأنه .

فكادت دفوعها تغلبها . . وروت له أن شقيقتها الصغرى أثارت زوبعة فى البيت بسبب حفل الخطبة الذى سيقام بعد أسبوع وإصرارها على أن يقام فى ناد نهري قريب فن بيتهم رغم علمها بظروف الأسرة وعجزها عن تحمل تكاليفه .

فقاطعها قائلاً بهدوء ، ستكون لديك تكاليف الحفل صباح غد وسيزيد القسط الشهرى الذى تدفعينه لى فبلغاً صغيراً ، وهمت بالاعتراض فلم يدع لها فجلاً لأى اعتراض واستخدم فعها حزفه الرحيم أفرأ إياها بالعودة إلى فكتبها .

وفى اليوم التالى سلمها فظروفاً آخر وسدَّ عليها كل أبواب الاعتذار ، فؤكداً لها فن جديد أن سعاده فى أن يفعل ذلك .

وفى جلسته بالبار ذلك اليوم استرجع حيرتها وخرجها وفحاولاتها
لرفض المظروف . . ثم استسلافها فى النهاية لقبوله وعلاقات الارتياح
التي تسللت رغما عنها إلى وجهها فقال لنفسه : لك . . ولمن تُحيين . .
أريد أن أقدم كل شىء . . كل شىء . . بلا استثناء . . فلا تحرفينى فن هذه
السعادة .

وعاد إلى بيته سعيداً راضياً عن نفسه فى المساء ، وبعدها بأيام استدعاه
فديره وهو صديق قديم جمعت بينهما رحلة الحياة سنوات عديدة ، وسأله
عن شئون العمل بعض الوقت ثم نحى أوراقه جانباً وقال له : سماح
شديدة العرفان لك لما تفعله فعها وفع أسرتها . . لكن ألا تبالغ قليلاً فى
الاهتمام بأفراها؟

وأجابه فحرجاً :

ألم تطلب فنى رعايتها وحمايتها؟

سكت المدير لحظات ثم قال له :

نعم طلبت فنك ذلك ولست أخشى عليها فن شىء فعك . . لكنى
أخشى عليك أنت نفسك . . فنحن الآن فى سن لا تحتمل عذاب
القلوب . . فهل تحب أن أنقلها إلى إدارة أخرى بعيداً عنك قبل أن
يحدث فالأ يحمد عقباه؟! .

فاحمر وجهه خجلاً وانفعالاً . . وأطرق برأسه طويلاً ثم رفع وجهه
أخيراً وقال له :

- لا تخش شيئاً . . فلست بالإنسان الذى يعمى عن واقع عمره وظروفه، فإذا كنت «أستريح» لهذه الفتاة الطيبة . . فلن يتجاوز التعبير عن هذا الارتياح حدوده أبداً وفهما طال العمر، ولن يكون له أى أثر تخشاه .

وشاركه صديقه الصمت لحظات ثم سأله فجأة:

- لماذا لا تتزوج فن أريلة أو فطلقة فنانسة لك فى السن لتشغل بها فراغ حياتك؟

ونهض الصديق القديم قائلاً: عالمى صغير وفحدود، ولا يتجاوز هذه الإدارة وبار الشروق وفسكنى وليست لى علاقات اجتماعية فع أحد . . فمن أين أجد هذه الشريكة؟ وهبنى وجدتها فكيف أتواءم فعها بعد هذا العمر الطويل فن الوحدة . . فلقد فاتنى القطار يا صديقى ولم أعد حتى راغباً فى اللحاق به .

وغادر فكتب المدير فشيئاً بنظرات الإشفاق وفى فكتبه رفق سماح المنحنية على فكتبها بحنان غريب وقال لنفسه، حتى الافتنان يا صغيرتى يجب أن تكتميه عن الآخرين حتى لا يحرفنى أحد فنك ! .

ثم لاحظ بعد قليل تكرار ظهور فوظف شاب وسيم فن إدارة أخرى فى إدارته وتعمده الحديث فع فسدداً سهام نظراته إلى سماح . . فعافله بجفاء فقصد لكيلاً يشجعه على العودة فن جديد . . لكنه واصل الإلحاح والظهور بلا نهاية . . وهم ذات فرة أن ينهره ويشير أزفة فع، فلاحظ فجأة ظل ابتسافة على وجه سماح تتجاوب بها فع نظراته

وفحاو لاته للكلام فعها . . فتراجع عن نيته عاجزاً وسلّم بأن السهم قد نفذ وفات أوان الاعتراض !

وبعد أيام رآها تتحدث مع هذا الموظف الشاب بترحيب لافت للنظر ، وتضحك بسعادة على حديثه ، فغالب مشاعره المتضاربة طويلاً قبل أن يستسلم لإحساس لم يألفه من قبل . . إحساس يجمع بين شيء من الغيرة من هذا الشاب الوسيم وشيء من الإعجاب به في نفس الوقت .

وبعد جلسات يوفية فتكررة في بار الشروق ، ظل خلالها يقلّب الأفر على كل وجوهه ، وجد نفسه في النهاية فستعداً لأن يُعين سماح على الارتباط بهذا الشاب بشرط واحد هو ألا يحرفه الغازي الجديد فن «حقه» في رعايتها والاهتمام بأفراها قبل الزواج بعد تفرق الإخوة في البلاد سواها .

في صباح اليوم التالي بادرها بالحديث قائلاً :

- انتظرت طويلاً أن تُحدّثيني عن «أفرا» فمتى تبدئين الحديث عنه؟
فتضرّج وجهها بالاحمرار وقالت له :

- كنت سأحدثك بشأنه ، لكنني انتظرت أن «تشجعني» أنت على الكلام عنه .

فقال لها باهتمام لم تُع كل أبعاده :

- تحبينه؟

وأجابته بانحناءة صافئة فن رأسها . . فجاش صدره لها فجأة بالعطف
و«الحب» حتى كادت تفضحه نظراته وسألها:

وفتى ينوى أن يتقدم لك؟ فأجابته بمرارة: دون ذلك أهوال
وأهوال . . فإنكاناته فحدودة . . وظروف أسرتى كما تعلم .

فتولاه غضب غير مفهوم فجأة وقال لها بحدّة:

- فاذا فى ظروف أسرتك يمنع فن تحقيق سعادتك كأختك؟ إن
أسرتك عادية ككل الأسر . . وأنت فوظفة وهو فوظف . . فابدأ الآن
فوراً وبلا فراوغة!

فقاطعته قائلة بإشفاق: لكن أسرتى ستعجز عن الإسهام فى زواجى
بأى شىء . . حتى الحفل العائلى البسيط لإعلان الخطبة قد تعجز عن
تكاليفه . . فكيف نبدأ الآن وسط هذه الظروف؟

فازداد انفعاله الغاضب وقال لها: وفن قال لك أولاً إن حفل خطبتك
سيكون عائلياً وبسيطاً . . وفن قال لك إن أسرتك هى التى ستتحمّل
تكاليفه؟

أليس لك «أب» سوف يسعده أن يقدم لك هذه الهدية البسيطة؟

فاتسعت عيناها فن الدهشة وتعثرت الكلمات فى فمها ثم قالت له:

. . . ولكن!

فقاطعها رافعاً إصبعه فى وجهها:

هذا قرارى ولا فناقشة فيه وعليك أن تنفذى كل أوافرى فى هذا
الشأن فوراً، فادعى هذا الشاب لكى «يخطبك فنى» أولاً قبل أن
يتقدم لأسرتك . . وسأحدد له فوعد الخطبة وأقوم عنك بكل شىء
ولا أريد فعارضة فنك فى هذا الشأن . . ففهوم؟

وظل رافعاً إصبعة فى وجهها ففتعلاً الحزم فعها، فراحت ترقب لبرهة
وجهه الطيب المريح المحتقن دائماً بالاحمرار فن تأثير الخمر، ففاضت
نفسها له حباً وعطفاً وافتناناً وأجابته فستسلمة :

- ففهوم يا أفندم . . وشكراً لك .

فارتخت أساريه رويداً رويداً، وتسلل إليه إحساس غريب بالارتياح
والبهجة المشوبة بالحذر فن أن يفقد «سعادته الوحيدة فى الحياة» ذات
يوم، وقال لنفسه فتعجباً فن استكثارها عليه أن يفعل ذلك : فاذا دهى
هذه الفتاة . . ألم أكن واضحاً فع نفسى حين قلت إننى أريد أن أقدم لها
ولمن تحب كل شىء فى الحياة . . كل شىء ؟!

نهض من نومه منتشياً بإحساس «المغامرة» التي سيقدم عليها بعد تردد طويل ، أحس وهو في الحمام بمتعة مختلفة للماء الساخن لم يحس بها منذ زمن طويل .

ارتدى ملابسه في غرفة النوم محاذراً من أن يوقظ زوجته من نومها العميق ، وتسلى في هدوء حاملاً حقيبة الأوراق الجلدية الصغيرة التي ترافقه إلى العمل كل يوم .

في موعده الصباحي خرج ، لكنه لن يذهب إلى العمل هذا اليوم ولن يحتاج إلى حقيبة الأوراق ، ركب سيارته إلى محطة السكة الحديد ، وأوقفها في ساحة الانتظار ومنح المنادى بقشيشاً محترماً وتلقى شكره باسمًا ، دخل إلى المحطة فراقب زحام المسافرين والقادمين بدهشة وتعجب ، كأنما يراه للمرة الأولى ! تكفلت السيارة برحلاته المتباعدة مع الأسرة والأبناء في السنوات الأخيرة فتراجعت ذكريات القطار في حياته . تحسس تذكرة السفر في جيبه ، كأنما يتأكد من وجودها فيه ثم اتجه إلى بوفيه المحطة . مازال أمامه بعض الوقت حتى يحين موعد السفر . . وما أجمل فنجان القهوة الساخن في مثل هذا الصباح المشير . . احتسى القهوة بتلذذ غريب وهو يتطلع إلى وجوه الرواد حوله ، كأنما يبحث عن وجه غائب .

6

تذكر «الاتفاق» فعاد إلى قراءة الصحيفة مسترخياً ، لكن القلب يهفو رغم ذلك إلى التأكد من الالتزام بالتفاصيل الدقيقة!

نظر إلى ساعته ثم دفع ثمن القهوة وطوى صحيفته وأودعها الحقيبة . . نهض متلفتاً حوله للمرة الأخيرة، كأنما ليطمئن إلى أن أحداً من رواد البوفيه لا يعرفه، ثم اتجه بخطوات سريعة إلى رصيف القطار .

سمع دقات الجرس التي تنذر بقرب تحرك القطار فحثَّ خطاه إلى المقدمة بنشاط، دخل عربة الدرجة الأولى رقم واحد وقدم تذكرته لفراش القطار وسار خلفه إلى مقعده . . وهو يتصفح الوجوه بحذر وترقب .

توقف الفراش أمام مقعد خال بجوار سيدة جميلة في الثلاثينات من عمرها، تضع نظارة سوداء على عينيها، فاقترب من المقعد ببطء ممسكاً بورقة مالية صغيرة أعطاها له، واسترد منه تذكرته وجلس متجنباً الالتفات إلى جارته المشغولة بالنظر عبر نافذة القطار .

دق جرس الرصيف دقته الأخيرة وتحرك القطار ببطء، وتراجع المودعون والرصيف إلى الورااء . . وانطلق القطار في رحلته التي لن يتوقف خلالها إلا في محطة الوصول بالاسكندرية، فحل الاطمئنان محل قلق اللحظات الفاصلة، وأدارت السيدة عنقها الجميل عن نافذة القطار، ووشت ملامحها بابتسامة خفيفة وهمست وهي تنظر للأمام :

- خفتُ أن يُعطلك شيء في اللحظة الأخيرة عن المجيء! فاسترخى في مقعده مطمئناً ومبتهجاً وأجاب هامساً :

هيئات أن يُعطلني شيء عنك بعد كل هذا العناء!

جاء مفتش القطار فقدم له تذكرته . . وقدمت له السيدة تذكرتها وانصرف إلى باقي الركاب . . فما إن ابتعد عنهما قليلاً حتى لكزت السيدة جاراها بلطف في كتفه وقالت له في مرحٍ :

- تكلم دون أن تتلفت حولك خائفاً أو قلقاً كعادتك! نحن الآن فى «سجن» متحرك لمدة ساعتين ونصف الساعة ولن يقاطعنا فيه أحد . . . وليس بين الركاب أحد يعرفك أو يعرفنى فتكلم، أريد أن أسمع صوتك طوال هذه الفترة! .

وتلاقت عيونهما فى تحفز باسم فضحكا معا بابتهاج . . ثم تدفق نهر الكلام الحلو على الشفاه بلا انقطاع! .

كم من الوقت ضاع فى محاولة إقناعه بالإقدام على هذه «المغامرة الجريئة»؟

ليس أقل من أسبوعين ألحت عليه خلالهما كثيراً فى أن يخرج من شرنقة الخوف . . والتردد ليقدم عليها قالت له بغضب جميل : لا أراك إلا مرة لنصف ساعة كل أسبوعين أو ثلاثة وفى مكتبك حيث يُقاطعنا أكثر من مرة الغرباء، لا أتحدث معك فى التليفون إلا مرة كل يومين أو ثلاثة ولعدة دقائق، حتى لا تطول المكالمة وتلفت أنظار العاملين معك فى المكتب والعملاء . . ولا أستطيع زيارتك أو الاتصال بك إلا فى مكتبك وتحت أنظار الآخرين وكلانا محكوم بظروف أقوى منه، ولا يستطيع التمرد عليها فى المدى المنظور على الأقل، فإذا كانت الأقدار قد حكمت علينا بالألا نلتقى إلا وكلانا مكبل بقيود لا يستطيع الفكك منها . . فلنسرَق إذن بضع ساعات من العمر نتبادل خلالها الإحساس بقرب كل منا للآخر، ونتحدث بحرية وبلا خوف من أنظار الآخرين أو مقاطعتهم . لقد وعدتني مراراً بأنك ستفعل شيئاً لتحقيق ذلك لكنك لم تفعل . . ولا تريد أن تفعل!

فسألها باستسلام:

- ماذا تريد منى أن أفعل بالضبط؟

أجابت في هدوء:

- لى عمه مسنة تقيم بالاسكندرية ولم أرها منذ عامين . . وقد اشتد بها المرض وأريد أن أزورها وأقضى معها بضعة أيام . . وقد فكّرت فى أننا نستطيع أن نسافر معاً بالقطار . . فنستمع لمدة ساعتين ونصف الساعة بوجود كل منا إلى جوار الآخر وهو مالم يُتَحُّ لنا منذ ارتباطنا .

هزَّ رأسه بالقبول ، فواصلت حديثها وقد زایلها الغضب «الجميل» الذى قرن بين حاجبيها فزادها جمالاً فى عينيه :

لقد رتبت كل التفاصيل . . سأسافر بعد غد فى قطار الصباح وسنحجز تذكرتين متجاورتين ، وسيذهب كل منا وحده إلى محطة القطار . . وسأركب القطار أولاً وأجلس فى مقعدى ، وأطمئن إلى عدم وجود أحد من أقاربي أو معارفى فى نفس العربة . . وتنظر أنت حتى يوشك القطار على التحرك فتركبه فى اللحظة الأخيرة ، وتجدنى فى انتظارك ، وقد طلبت فنجانين من القهوة ثم نتظاهر بأننا تعارفنا فى القطار . . ونستغرق فى الحديث الممتع حتى تنتهى الرحلة . . وتعود أنت فى نفس اليوم إلى القاهرة!

استمع «للتفاصيل» الدقيقة التى قدمتها له للرحلة ثم قال لها باسمًا:

رتبت كل شىء . . ولم يبق إلا التنفيذ .

فأغنى الصمت عن الكلام .

«قارن» للحظات بين «غضبها» الجميل الذى لم يتجاوز التقريب بين حاجبيها ثم لم يلبث أن اختفى بعد دقائق، وبين غضب «الأخرى» المدوَّى الذى تتدافع معه الكلمات الجارحة من الفم الأخرق، ولا يفلح معه رجاء ولا توسل لضبط النفس وعدم إشعار الأطفال بمشكلتها، حتى لا يتبدد أمانهم وتتكرر أوقاتهم، وتعجب كيف كانت هذه «الأخرى» نفسها هى السبب فى التقائه بمن عوّضته عن تعاسته وأشعرته بجمال الحياة.

ذات يوم منذ أكثر من عامين . . قالت له زوجته إن جارة مطلقة لإحدى قريباتها تسأل عن مهندس معمارى لتطلب مشورته فى أمر يهمها، فأشارت عليها قريبتها به وطلبت من زوجته تحديد موعد لاستقبالها.

جاءت فى الموعد . . فأحس بألفة غريبة وهو يصفحها كأنما يعرفها من قبل . . دعاها للجلوس فى احترام ثم طلب لها فنجاناً من القهوة، وتوجه إليها باهتمامه فعرضت عليه مشكلتها، كانت ترغب فى إجراء بعض التعديلات فى مسكنها وإزالة أحد الحوائط . . لكن مالك العمارة يعترض بدعوى تعريض المبنى للخطر، فطلب منها معاينة المسكن والعمارة، وتوجه إليها فى اليوم التالى فاستقبلته بحفاوة فى فستان محتشم أنيق، تنقل بين أرجاء المسكن لإجراء المعاينة الضرورية فلاحظ خلوه إلا منها ومن طفلتين صغيرتين أكبرهما فى التاسعة . . ووشى الأثاث والستائر وألوان الحائط بذوق جميل يتناسب مع جمال وجهها الحزين، رجع إلى الصالون وأعاد النظر فى التعديلات المقترحة، وانتهى

إلى قراره بأنها لا تعرض سلامة المسكن للخطر ، فسألته باستحياء عما إذا كان يستطيع إعطاءها شهادة موقعة منه بذلك فأجابها بالترحيب .

وبعد يومين زارته لاستلام الشهادة وحاولت مكافأته مادياً على مشورته الفنية فاعتذر بإصرار مهذب ، وتلقى منها بعد ساعات باقة زهور وعلبة شيكولاتة فاخرة .

وبغير قصد منه عرف شيئاً مهماً عن حياتها الشخصية ، فلقد رجع إلى بيته ذات مساء فوجد قريبة زوجته التي رشحته لها في زيارتهم ، وشكرته كثيراً على مساعدته لجارتها . . . وتطوّعت للحديث عن طيبتها ووداعتها ورزانتها وحسن جيرتها ، ثم أردفت ذلك بالتعجب لسوء حظها في الحياة رغم جمالها ومميزاتها العديدة .

وتنبه إحساسه بشدة حين مال الحديث إلى سوء حظها . . . وتساءل مغرباً قريبة زوجته بالحديث :

- وكيف كان سوء حظها في الحياة؟

فروت له أنها ابنة وحيدة لأب مستشار بالمعاش يُقيم في شقة أخرى تعلقو شقتها . . . وقد ارتبطت وهي طالبة بالجامعة بزميل لها ، وأصرت على الزواج منه رغم معارضة أبويها وتوجسهما من نيته تجاهها ، فهي وحيدة وقد باع أبوها ما ورثه عن أبيه من أرض زراعية وأودعه باسمها في البنك لزواجها ونفقات حياتها ، والشاب الذي رغبت في الزواج منه مستهتر ولا يملك شيئاً ، ولا يخفى رغبته في الاستفادة بمدخراتها . . . وهي بعين الحب لا ترى فيه إلا صورة فارس أحلامها فتزوجته وتكفلت

بمعظم تكاليف الزواج . . وأغرى أبوها ساكنًا يقطن تحت شقته مباشرة
ياخلاء شقته بمبلغ كبير واستأجرها لها وسجل عقدها باسمها، وتزوجت
فتى أحلامها وأنجبت منه طفلتين وعملت بمرتب لا بأس به . . وأنفقت
من مالها الكثير على حياتها حتى استمرأ زوجها الشاب قيامها بمعظم
نفقات أسرته، وبدأ يطالبها بنقل عقد شقة الزوجية إلى اسمه، فكادت
تفعل لولا أن منعها أبوها بعد جهد جهيد ثم طالبها زوجها بسحب مبلغ
ليس صغيراً من مدخراتها، ليشارك به صديقاً له فى عمل تجارى خاص
واعداً إياها برده بعد عام . . واستجابت لرغبته سرّاً فتبدد المبلغ فى
الهواء . . وطالب بالمزيد والمزيد واضطرت لمصارحة أبويها بما فعلت . .
فساءت علاقتهما بزوجها وساءت علاقته بها . . وبدأ يعتدى عليها
بالضرب والسب ويهجر البيت ويعود إليه . . ثم تسربت إليها أنباء
خياناته العديدة . . ففسدت حياتهما نهائياً . . وطلبت الطلاق وحصلت
عليه بعد عناء شديد وتنازلت له بمقابلته عن دينها عليه وكل حقوقها
وحقوق طفلتيها . . وراح هو يتخبط فى حياته وعلاقاته النسائية، ومن
حين لآخر يهددها بأن ينتزع منها طفلتيها إذا تزوجت فزهدت فى الزواج
واحتضنت طفلتيها وكرّست لهما حياتها .

خفق قلبه وهو يسمع هذه «المعلومات» الثمينة، وتعجب من نفسه لماذا
يهتم بأن يعرف عنها كل ذلك؟

وعادت السيدة للحديث عن جاريتها الجميلة الرقيقة المهذبة العاقلة،
ففوجئ بضيق زوجته المفاجئ بالحديث وقولها لقريبتها:

- كيف تعرفين أنها كذلك فعلاً . . وأنت لم تعاشرها في بيتها ولم تعرفي حقيقة طباعها وأخلاقها؟

فتوقفت القريبة التي تعرف جيداً «طلعات» زوجته وحدثها المفاجئة، وتراجعت كأنما تعتذر عن «مدح» سيدة أخرى في حضورها:

- هذا ما يبدو لي منها في الظاهر . . والله أعلم بسرائر الناس!

تأمل حدة زوجته وتقلبها المفاجيء المألوف فتساءل صامتاً:

كيف تجود الحياة على مثلها بالاستقرار العائلي فتبدو للآخرين زوجة ناجحة ومستقرة . . وما استمرت عشرته لها ولا نجا زواجه منها من الانهيار إلا بصبره على عصبيتها وفضاظتها وإصراره على ألا يحرم أطفاله من حياتهم الطبيعية تحت سقف واحد مع أبويهما!

عادت المطلقة التعيسة لزيارته بعد أسابيع لاستشارته في تكاليف التجديدات المقترحة بعد أن لاحظت مغالاة مهندس الديكور فيها فقدم لها خبرته بإخلاص . . وطلب منها دعوة المهندس لزيارته معها في موعد لاحق، واستقبلهما معاً في اليوم التالي، وتوصل مع مهندس الديكور لحل مرض للطرفين، ومن جديد حاولت مكافأته مادياً عن جهده معها فاعتذر بإصرار أشد، واعترف لنفسه بأنه يحس بسكينة غريبة حين تتحدث إليه!

تكررت اللقاءات بعد ذلك . . وتكرر افتعال المناسبات للاتصال والزيارة فترسخ التفاهم الصامت تدريجياً في الأعماق . . ولم تبق إلا المصارحة .

لم يسمح لنفسه وهو الأب والزوج بأن يُقدم على أية مبادرة معها، فلم يطل به الوقت حتى وجدها تعترف له هي بحبها العميق في صراحة أسرة، وقبل أن ينطق بأى جواب عاجلته بأنها تعرف عنه كل شيء . . . وتعرف أنه ليس سعيداً في حياته الخاصة، ولا يريد أن يدفع أطفاله ضريبة تعاسته . . . وأنه ليس «مغامراً» ولا عابثاً ولا يفكر في تغيير حياته أو بدء حياة جديدة مع أخرى .

فأحنى رأسه مستسلماً ثم قال لها بعد لحظة صمت : وإذن؟

فأجابته بنفس الوضوح : وإذن فأنت الرجل الوحيد الذى يناسبنى من بين الرجال ، لأنك أمين وطيب ومستقيم ومريح . . . ولا تريد أن تتزوجنى !

فاتسعت عيناه من الدهشة وتساءل بنظراته وصوته :

- وكيف يكون الجزء الأخير من حديثك . . . من «مميزاتى» !

فأجابته ببساطة : لأننى أيضاً لا أريد الزواج حتى لا أفقد ابنتى وأهيبى الفرصة الثمينة التى ينتظرها زوجى السابق لإيلامى ومنازعتى فيهما ! فتجراً قليلاً وقال لها : لكنى . . . لكنى . . . لا أستحل لنفسى أن ألمس سيدة لا تربطنى بها علاقة مشروعة؟

فقالت له بدهشة :

- ومن أدراك أنك سوف تلمسنى أو أننى سأسمح لك بذلك . . . إننى أم محترمة ولست طائشة أو عابثة ، ولم تتجاوز علاقتى بك الأحاديث

التليفونية القصيرة من حين لآخر . . . وزيارتي لك في هذا المكتب حين يشتد بي الحنين للقائك كل أسبوعين أو ثلاثة، ويكفيني ويكفيك أيضاً أن يحس كل منا أن له شخصاً عزيزاً لا يعلم به سواه يحبه ويهتم بأمره .

واختلفت حياته وحياتها كثيراً بعد هذا التفاهم الصريح!

فتجدد إقباله على الحياة وازدادت قدرته الشخصية، واختلفت النظرة الحزينة من عينيها وحلّت محلها نظرة مطمئنة مُترعة بالأمل في الحياة .

وعايش كلُّ منهما الآخر في خياله كل لحظة . . . وعرف عنه كل شيء لكأنما يعيش معه تحت سقف واحد . . . وأصبح كلاهما لا يتخذ خطوة صغيرة أو كبيرة في حياته الخاصة إلا إذا استشار شريكه في الحب والسعادة واستنار برأيه فيها، فعايش كل شئون طفليتها وأبويها وأسررتها ومشاكسات زوجها السابق لها، وعاشت هي كل شئون عمله وحياته العائلية وأبنائه . . . وتشاربا الحب والعطف والحنان، والتزما بالحدود التي تراضيا عليها لعلاقتهما رغم نداءات التمرد التي قد تشتد على أحدهما من حين لآخر فيكبحها .

لكنها بعد عامين طويلين رغبت في توسيع «الحدود» قليلاً، وتشكّت من قصر أوقات اللقاء وتباعدها ومن تحفظه معها خلال زياراتها لوجود عملائه أو مساعديه في الجوار، فألحت عليه في كسر الحدود الجامدة بعض الشيء والسفر معها ليستمتع كل منهما بقرب الآخر منه وبحديثه إليه طوال رحلة السفر .

فبدأت «المغامرة» التي تهيّبها طويلاً:

وتواصل الحديث العذب طوال رحلة القطار . . واستمتعا بتناول الإفطار فيه . . واحتساء الشاي ، وكلما مرَّ بهما راكب تفحصاه في اهتمام خشية أن يكون من معارفهما حتى قالت له فجأة بأسف باد :

- يا خسارة . . اقتربت الاسكندرية سريعاً على خلاف كل رحلاتي السابقة . . وبعد قليل سيودع كل منا الآخر ونعود للقاءات القصيرة المتباعدة!

فعمست نظرتة أسفاً مماثلاً وقال : نعم مضى الوقت سريعاً فكأنه ليس من الزمن .

راقبت اقتراب أرصفة محطة الإسكندرية بقنوط وسألته :

ماذا سنفعل بعد الوصول؟

فأجابها : سأنتظر في بوفيه المحطة ساعتين إلى أن يرجع نفس هذا القطار للقاهرة وأعود به إلى عملي وحياتي!

لفظ القطار آخر أنفاسه . . وتوقفت عجلاته تماماً فنهض الركاب من مقاعدهم . . وانشغلوا بإنزال الحوائب وتسوية ملابسهم استعداداً للنزول .

فهمست له : فلتتصافح هنا لأنى قد أجد أحد أبناء عمتى فى انتظارى على الرصيف .

فصافحها ببطء كأنما يريد تأخير لحظة الفراق ثوانى أخرى وحملت حقيبتها الصغيرة . . ثم تقدمته فى الممر وهو يسير خلفها مباشرة يرقب شعرها الجميل ومؤخرة رأسها بحنان غريب تقدم الطابور قليلاً فالتفتت

بزأسها إليه فجأة والتقت عيناها بعينيه في نظرة وداع باسمه تحركت لها مشاعره . . ثم استدارت برأسها وتحركت ببطء في الطابور الزاحف للأمام فقاوم رغبة طاغية في أن يمسك خصلات شعرها الجميل المتدليلة على مؤخرة رأسها ، كأنما ليؤكد لنفسه أن هذه السيدة الجميلة التي تتقدمه في الطابور ليست راكبة عادية كباقي الراكبات . . وإنما هي شيء ثمين يخصه وحده من بين الجميع .

اقتربت السيدة الجميلة من مقدمة العربة . . فأحس بالقنوط لانتهاؤ الرحلة سريعاً ، وتذكر أنه قد لا يراها بعد هذه اللحظة قبل أسبوعين أو ثلاثة فهمس لها بصوت خفيض :

- أريد أن أصاحبك في رحلة العودة بعد أيام فاحجزى تذكرتين متجاورتين ، وأبلغينى تليفونياً بموعد عودتك لأركب قطار الصباح إليك .
فوشى جانب وجهها بابتسامة راضية . . وأحنت رأسها الجميل بالموافقة . . كأنما كانت تنتظر منه هذا الاقتراح السعيد!

غادرت القطار وهو يسير خلفها عن بُعد كأنما لا تربطه بها صلة . . وكأنه لم يشعر منذ سنوات طويلة بالأمان والرضا عن نفسه وحياته إلا معها ، حتى رآها تصافح في نهاية الرصيف رجلاً وسيدة متوسطى العمر ، تتجه معهما إلى باب المحطة فتابعها بعينيه حتى اختفت . . ثم اتجه ببطء وتثاقل إلى بوفيه المحطة . . وهو يفكر :

- من يدري . . ربما تصحح الحياة بعض أخطائها المؤلمة ذات يوم قريب !

جاءت إليه في مكتبه مع زوجها . . قال له الزوج إن «المدام» لها قضية تريد أن تستشيرك فيها، فاعتدل في جلسته وتوجه إليها باهتمامه مترقباً أن تبدأ الحديث . . رآها حانية الرأس بادية الخجل والوداعة، فتساءل في باطنه أي نوع من القضايا يمكن أن يشغل هذا الرأس الجميل؟

روت له عن متاعبها مع صاحبة العمارة التي تقيم بها، وكيف تتصيد لها الأخطاء وتفتعل الأسباب لتحرر ضدها المحاضر بقسم الشرطة بافتراءات مختلفة . . وكيف بلغت قمة عدوانيتها مؤخراً، فأقامت ضدها دعوى قضائية لطردها من مسكنها بحجة مخالفة بنود عقد الإيجار . .

تحدثت بصوت رقيق خافت ووشى وجهها الجميل بالطيبة والبراءة والسذاجة، فتعجب كيف يقدر أحد على معاداة صاحبه الوديعة؟

سأل عن بعض التفاصيل واطلع على بعض الأوراق ولاحظ أن عقد الإيجار مكتوب باسمها وليس باسم زوجها وانتهى من تقييمه للموقف، فاعتمد بذراعيه على المكان وقال لها بثقة:

7 - اطمئني يا هانم موقفك سليم من الناحية القانونية وستخسر صاحبة العمارة دعواها ضدك .

استراحت السيدة الجميلة لما سمعت، وتبادلت نظرة ذات معنى مع زوجها الصامت ثم قالت لمضيفها:

- إذن هل أطمع في أن تتولى هذه القضية . . وتدافع عني؟ .

جاءت لحظة الحرج التي توقعها منذ حدثه صديقه المحاسب الكبير عن
رغبة هذه السيدة وزوجها في استشارته في أمر هذه القضية ، فقد توقع
هذا المطلب رغم إبلاغ الصديق له أنه قد أكد لهما اعتزاله الممارسة العملية
للمهنة منذ سنوات واكتفاه بعمله كمستشار لشركة كبرى ، يكاد يعتمد
عمله فيها على مراجعة العقود من الناحية القانونية .

استرخى في مقعده الكبير وقال لها في حرج : كنت أتمنى ذلك حقاً
يا سيدتى لكن وقتى لا يسمح به للأسف فمعدرة . . وإن شئت فقد
أستطيع أن أرشح لك محامياً أميناً من معارفى .

فارتسمت الخيبة بوضوح على وجهها الجميل ، لكنها لم تياس رغم
ذلك من تأثير جاذبيتها التي لا تقاوم فقالت له :

يا خسارة . . إن المحامين كثيرون . . لكنى كنت أريدك «أنت»
لما سمعته عن أمانتك وكفاءتك ، وها أنت تبخل على بوقتك فشكراً .

اكتفى بابتسامة الاعتذار الصامتة متحاشياً التورط في قبول عمل
لا يريد ، فنهضت السيدة وزوجها وصافحاه باحترام وانصرفا شاكرين .

خلت عليه غرفة مكتبه . . فعاد إلى أوراقه وهو يستعيد في مخيلته
صوتها ، وهى تقول له «أنت» بدلال أنشوى محسوب ولا يرى بالعين
المجردة . . فلم تفت عليه دلالاته وتذكر ما رواه له صديقه عن جاذبيتها
ونعومتها فى التعامل مع الجميع وعن تأثيرها القوى على زوجها المفتون
بها ، فهز رأسه كأنما ينفذ عنه أى أثر لهذه الجاذبية مهنتاً نفسه على

صموده، مضت سبع سنوات منذ استسلم للضعف لآخر مرة في حياته أمام سيدة جميلة مثلها، فعاش معها قصة حب دامية كادت تعصف باستقرار حياته العائلية، واحتملته «صبرية» زوجته كثيراً في تلك الأيام العصيبة حتى فاض صبرها بعد عامين طويلين فهجرته وطلبت الطلاق.. وهم بأن يطلقها بالفعل مضحياً بكل شيء حتى بابنته الوحيدة ريهام.. فإذا «بالحبيبة» التي زلزلت كيان أسرته تتراجع في اللحظة الأخيرة وترفض الانفصال عن زوجها لتزوجه.. وتكشفت له حقيقتها سافرة: لا بأس «بالحب» مع استمرار حياتها الزوجية.. لكن الانفصال وتمزق الأبناء شيء آخر! فكره كل شيء.. وغالب حبه لها طويلاً حتى تغلب عليه، وعاهد نفسه على ألا يضعف أمام امرأة أخرى إلى نهاية العمر.. واستعاد زوجته بعد عناء مرير ورضى بحياته معها.. فماذا تريد منه الآن هذه السيدة الجميلة؟

فوجيء في اليوم التالي لزيارتها له بصوتها في الصباح الباكر يجيء إليه متسائلاً في خجل: عفواً لإزعاجك لقد رفضت قضيتي لأسباب تقدرها.. ولا أملك إلا احترام رغبتك.. لكن هل.. هل تمنع أيضاً في أن أستشيرك من حين لآخر في تطورات القضية؟

لم يستطع الاعتذار هذه المرة، وأبدى لها استعداداً لذلك متظاهراً بالحماس والترحيب، وعاد إلى عمله وحياته فنسى أمرها وأمر قضيتها.. لكن السيدة الجميلة لم تدعه لشأنه طويلاً.. فقد كررت الزيارة له مع زوجها وتحدثت هي طوال الزيارة، واكتفى زوجها بالصمت وتأييد كلامها من حين لآخر.. فلاحظ قدرتها الفائقة على

اجتذاب اهتمام محدثها . . وجاذبية حديثها بالمقارنة بعجز زوجها
الواضح عن التواصل مع الآخرين وعقم حديثه .

وفي ختام الزيارة قالت له بابتسامة مغرية : هل تخجلنى مرة أخرى
برفض دعوتى لك إلى العشاء فى بيتى ؟

قبل دعوتها شاكرًا . . وتوجه إليها فى الموعد المحدد حاملاً علبة من
الشوكولاتة الفاخرة ، فتلقته وهى فى كامل زينتها بترحيب حار واحتفاء
كبير ، وأشعرته طوال الجلسة باهتمامها الخاص به دون أدنى حرج من
زوجها الجالس فى هامش الصورة ، وقادت الحديث ببراعة وحيوية وخفة
ظل طبيعية فمضى الوقت خفيفاً ممتعاً . . وغادر بيتها عند منتصف الليل
ورأسه يدور بنفس السؤال : ماذا تريد هذه السيدة الجميلة ؟

تكرر اتصالها به فى مكتبه فى الصباح بعد ذلك باختلافات
واضحة . . وكلما أمعن فى التغايب والهروب ازدادت إصراراً على
اجتذابه إليها واحتوائه . . حتى بدأ يشعر بالحرج تجاه زوجها الذى تردد
عليه أكثر من مرة بشأن القضية ، وبداله حريصاً مثلها على تعميق
صلته به .

تطور الحديث بينه وبينها خلال اتصالاتها به من القضية إلى حياتها
الشخصية ، فروت له «بتأثر» كيف أنها تشعر بحرج وضعها كزوجة . .
وهى تتصل به وتبدو أمامه حريصة على استمرار صلتها به . . فى حين
يتفادى هو الاتصال بها وزيارتها . . لكن عذرها فى ذلك أنها تشعر معه
بالأمان ، وبأنها تستطيع الاعتماد عليه فى شئون كثيرة وليس فى القضية

وحدها، فى حىن تضطرها الظروف لأن تقدم هى لزوجها الحماية النفسية وهى فى أشد الحاجة إليها من رجل بمعنى الكلمة . . مثله! وتهاوت الحصون واحداً وراء الآخر على مرّ الأيام فوجد نفسه يترقب اتصالها شبه الیومی . . ویزداد اهتمامه بها .

وبتدبیر مُحکم توقفت عن الاتصال به بضعة أيام، فأحس باضطرابه ولهفته على سماع صوتها، لكنه قاوم رغم ذلك الاتصال بها حتى النهاية، ثم جاءه صوتها بعد الغياب عاتباً، أهكذا تهتم «بأصدقائك» . . فلا تسأل «عنهم» فى مرضهم؟

اعتذر بجهله بمرضها عن تقصيره، لكن الجميلة لم تقبل بأقل من زيارة بيتها للاعتذار وإبداء الاهتمام، فرحب بذلك وهو يشعر فى أعماقه بأنه يسير فى طريق الهاوية الذى سار فيه من قبل ولا يستطيع مغالبة أقداره .

بادرها بتحديد موعد الزيارة لكنه تساءل . . أليس من اللياقة أن تجيء الدعوة من زوجها؟ فجاءه جوابها غير المتوقع : إنه جالس إلى جوارى الآن ويسمع ما أقول لك! .

زارها فى بيتها فى المساء، وطالت الجلسة حتى منتصف الليل، فافتنع فى نهايتها بأنه لم يكن ليطبق البقاء بهذا البيت أكثر من نصف ساعة لو كان يجالس فيه زوجها وحده . . إنه شاب طيب يقترب من الأربعين ويعمل محاسباً، لكنه محدود الخبرات . . ولا يكاد يتحدث إلا عن عمله الحكومى فى الصباح، وعمله فى مكتب المحاسبة بعد الظهر . . وهو

موجود فى الجلسة وغير موجود حتى خيل إليه فى بعض فترات اللقاء أنه «يتطفل» على الحديث الممتع بينه وبين تلك السيدة الجذابة . . فيقطعه برواية قصة لا مبرر لها عن عمله . . ويتأدب هو فيظهر الاهتمام بسماعها، وتبدو الجميلة نافذة الصبر تنتظر فراغه من قصته المملة لتواصل حديثها الممتع مع الضيف الذى يحظى باهتمامها!

أما هى فقد بدت له كالقطة الأليفة، التى تحب أن يربت الجميع على ظهرها فى كل وقت لإشعارها بالحنان والاهتمام.

وفى اتصالها الصباحى به فى اليوم التالى، قالت له بصراحة أسرة إنها تعرف أنها البادئة بالعلاقة، وتطلب ما ليس من حقها، لكن عذرها فى ذلك أنها «تحب» ولا تخشى فى ذلك إلا أن يسىء بها الظن ويظلمها فيظنها امرأة عابثة! .

فحلّ التفاهم الصريح محلّ الإشارات والإيماءات، وقرر أن يستفيد من تجربته السابقة، فصارحها منذ البداية بإصراره على ألا تتجاوز علاقته بها حدود المشاعر العاطفية والاهتمام الشخصى وأنس الصحبة العلنية تحت مظلة الصداقة، ووافقته على ذلك من ناحية المبدأ - تاركةً للأيام - كما قالت له - أن تحدد الإطار الملائم لعلاقتهما فى المستقبل! .

وشيءً فشيئاً تشكلت ملامح حياتهم الجديدة هو وهى وزوجها، واستقر فى أذهان المحيطين بهم، فأصبح نظام حياتهم أن يلتقوا كل مساءً تقريباً ويمضوا السهرة معاً حتى منتصف الليل، إما فى مسكن القطة الأليفة . . أو فى أحد المحلات العامة، والحديث ممتع و«الصداقة» صافية

والإخلاص حقيقى ومتبادل بين الثلاثة . . فلا بيت أحدهم فى أمر يخصه دون استشارة الآخر . . والأسرار مستباحة بين الجميع حتى عرف عنها وعن زوجها كل دخائلهما وصارحهما هو أيضا بما لم يصارح به أحداً قبلهما . . ولا شئ فى الجو يشير إلى العلاقة الخاصة بينه وبينها سوى اهتمامها الزائد به الذى يشعره بالحرج أحياناً أمام زوجها . . وسوى بعض اللفتات المختلصة كنظرة ولهانة عند الاستقبال أو لمسة يد خفية أثناء تقديم الشاى . . أو دغدغة متعمدة من قدمها لقدمه تحت المائدة . . أما كلمات الحب والعشق فتناسب بغزارة فى اتصال الصباح . . وفيه أيضاً تكتمل جوانب الصورة بعد افتراقهما فى الليلة السابقة ، فتحكى له ماذا فعلت وماذا قال زوجها ، ثم تسأله باهتمام عن صبرية زوجته وكيف استقبلته عند العودة فى منتصف الليل . . وهل تشك فى أى شئ . . إلخ .

وازدادت العلاقة عمقاً بين الأصدقاء الثلاثة . . وعند حد معين لم يكن هناك مفر من أن تتداخل الحدود أيضاً بين الأسرتين ، فدعاها وزوجها إلى بيته ، وردا إليه الدعوة العائلية . . وترقب متوجساً رد فعل زوجته «صبرية» واستعد لمواجهة شكوكها القديمة . . فإذا بها تبدو راضية ومطمئنة إلى الصديقة الجديدة . . ولاحظ بإعجاب أن القطة الأليفة رغم تحفظ زوجته المألوف مع الغرباء قد اكتسبت حبها وثقتها بسهولة غريبة ، فكأنما قد خلقت لأن تُحب من الجميع رجالاً ونساءً .

فاطمأن قلبه من ناحية صبرية ، وواصل إبحاره مع القطة الجميلة فى قارب الحب ، ومن حين لآخر تسأله القطة :

- لو طُلقت من رفعت زوجى . . هل تتزوجنى؟ إنك لو فعلت فسوف تعيش أسعد أيامك إلى نهاية العمر وسأعيشها أنا أيضاً . . فلقد كانت أمنيتى دائماً أن أتزوج ممن أحب وأكرس حياتى له وأهدده وأدله . . وأتلاشى فى شخصيته وأجلس تحت قدميه وأسعد برؤيته وهو ينهى ويأمر فى كالمملك المتوج!

ثم يسيل دمعها متحسراً على «الحلم» الذى لا تسمح الدنيا بتحقيقه . .

لم تكن غائبة عن الواقع . . لكنها كانت تستجيب لطبيعتها فتستسلم أحياناً للأحلام الجميلة . . فقد تزوجت وهى طالبة من زوجها زواجاً تقليدياً . . وتعلق بها زوجها منذ البداية وأحبها حباً ملك عليه نفسه، أما هى فقد قبلت به طامعة فى أن تخلق العشرة بينهما الحب الجميل فأنجبت طفلتها الوحيدة . . واستمتعت بحب زوجها الكبير، وانطوت له دائماً على إحساس بالعطف والاعتزاز بحبه لها . . لكن السنوات مضت ومؤشر مشاعرها تجاهه يتجه إلى الهبوط ومؤشر حبه لها يتجه إلى الصعود فى الحب الكبير الذى يحتويها ويغمض عينيها عن كل شىء فى الحياة .

ورغم إدراكه هو لأن القطة الأليفة لا بد أنها قد بحثت قبل أن يعرفها عن «الحب الكبير» لدى غيره، فقد كان يجيبها عن سؤالها الحالم له كل مرة بالإيجاب وهو يعرف جيداً أنها لن تقدم على هجر زوجها وطفلها، وهى تعلم جيداً أنه لن يضحى بزوجه وابنته، لكن إجابة السؤال كانت ترضيها وتشعرها بأنها امرأة مُحبة تصادف أن التقت بالمحب الذى

تنشده وهى «للأسف» زوجة وأم لكنها ليست مجرد امرأة عابثة تستهين
بالروابط الزوجية بلا ندم! .

أما زوجها رفعت فقد زادت الأيام معرفة به فأدرك عمق حبه لها
وتمحور حياته حولها . . وأيقن أن علاقته بزوجته أبدية ، وأنه ليس
بمستبعد أن يقتلها أو يقتل غريمه ذات يوم إذا أحس بأنه فقدتها
إلى الأبد . .

ورغم ذلك فلقد أثار حيرته فى كثير من الأحيان ، فلقد كان يبدو فى
بعض الأحيان غافلاً عما يدور حوله مما يستلقت انتباه أى مراقب آخر
بسهولة . : وكان يبدو له فى أحيان أخرى واعياً بكل شىء ، لكنه يتجاوز
عنه مقهوراً بحبه لها أو مطمئناً إلى أنه يجرى فى النهاية فى حدود الأمان
التي لا تهدده بفقده زوجته! . . بل وخيل له أكثر من ذلك أنه إنما يعتمد
فى ذلك عليه «هو» وليس على زوجته التي لا بد قد أدرك بالعشرة ضعفها
أمام نداء القلب إذا تحرك ، فأمل فى التزام الصديق الجديد بأسرته
وبوابات الصداقة فى ألا تتعدى القصة حدود الإعجاب «البرىء» من
ناحية زوجته! . .

والحياة تمضى بالأصدقاء الثلاثة . . وبعد عام من بداية القصة استقرت
الملامح والحدود . . وتحت مظلة «الصداقة المخلصة» استمتعت القطة
الأليفة بأن تكون محور اهتمام رجلين يحملان لها مشاعر الحب الصادق
وتخصص هى أحدهما بحبها . . وتتقبل من الآخر حبه وعشقه بامتنان
وتجزيه عنهما عشرة جميلة طيبة وعطاءً مخلصاً لبيتها وأسرته .

وأصبح مألوفاً بين «الرجلين» إذا التقيا في غيابها ألا يكون لهما حديث إلا عنها وعن كل شئونها وأن يسترجعا بتلذذ واضح كلماتها وحكاياتها، كأنما قد استقر التفاهم الصامت بينهما على أنه إنما يجمع بينهما حب كل منهما لها بطريقة الخاصة! .

لكن الأيام حملت للثنين معاً بعد عامين من التجربة نذيراً مزعجاً . . . فلقد مرضت طفلة القطة الأليفة مرضاً شديداً، فاستنجد زوجها بطبيب أطفال لإنقاذها، وجاء الطبيب لعيادتها وتكرر تردده على البيت . . . فإذا به يقع تحت تأثير جاذبية سيدة البيت ونعومتها المعتادة مع الآخرين . . . وإذا بالعلاقة العابرة تتحول إلى «صداقة عائلية» جديدة لا تخفى دوافعها على عيون المحب . . . وإن خفيت عن عيون زوجها، وبحماقته واعتياده ألا يقر له قرار في غير حضور زوجته المحبوبة ساعد على فتح الثغرات بدلا من أن يسدها . . . فحنق عليه صديقه المحامى في قرارة نفسه وتساءل صامتاً: لماذا تترك لى دائماً مهمة الغيرة على زوجتك . . . وإبعاد الغرباء عنها؟ فلم يكن طبيب الأطفال أول متطفل على حياة الأصدقاء الثلاثة خلال رحلتهم معاً . . . وإنما سبقه من قبل مقال شاب احتاجت إليه الأسرة لتجديد طلاء مسكنها فتكررت المقدمات المألوفة والنتائج المتوقعة وشهدت علاقته بها أول أزمة حقيقية منذ عرفها فاتهمها «بالاستمتاع» برغبة هذا المقاول الشاب فيها وتشجيعه عليها . . . وبكت طويلاً ونفت عن نفسها التهمة . . . واتهمت زوجها بتوريطها في المشكلات من حيث لا يدري . . . ولم يقتنع بدفاعها عن نفسها وقاطعها لفترة بذلت خلالها كل جهدها لاسترجاعه . . . فعاد إليها وهو يحس بأن ثوب الحب الأبيض

قد تنغص ببقعة كبيرة سوداء . . ورغم ذلك فقد رجع واستسلم لمشاعره معها ، وإن لم يخلُ منذ ذلك الحين من سوء ظن بطبيعتها القبطية التي قد تستنيم لأى يد تربت على ظهرها بإعجاب .

ومضت الأزمة بسلام . . لكن ها هي تتكرر بعد أقل من عام فهل فتر الحب . . وأذن بالوداع؟ .

راقب مراوغاتها له ومحاولاتها لإقناعه بخطأ ظنونه فى أسى عميق وهو يسأل نفسه : هل آن الأوان لأن يقنع بما يقنع به زوجها من تفسيرات خادعة وأكاذيب؟ وإذا كان حرصها على استمرار الزواج لصالح الطفلة الوحيدة هو الذى يدفعها إلى ذلك مع زوجها ، فما الذى يدعوها لخداعه وليس لاستمرار علاقتها به من مبرر سوى الحب؟

طال ظهور طبيب الأطفال فى أفق أسرة القطة الأليفة . . وطالت مراوغاتها فاعتذر عن سهرته شبه اليومية معها بمرض طارىء . . واحتجب فى بيته مشاركاً صبرية وابنته ريهام جلستهما المسائية أمام التليفزيون فجلس بينهما بذهن غائب وقلب ممرور ، وراقب صبرية وهى مستغرقة فى متابعة الفيلم المعروف فى اطمئنان . . وسأل نفسه كيف لم تتنبه خلال العامين الأخيرين إلى كل ما جرى تحت السطح رغم العلامات الواضحة؟ . . هل تعامت عامدة لكيلا تكرر المحنة التى كادت تعصف بحياتهما معا من قبل؟ . . أم تراها قد استسلمت لثقتها فيه بعد أن تلقى درس التجربة ، والتزم بالإخلاص لها سبع سنوات كاملة؟ وفجأة أحس بالرثاء لها والأسف أيضاً وقال لنفسه : طيبة ومتدينة وربة أسرة

أمينة، وقد أحسنت تربية ريهام، فكادت تستوى شابة جديدة بأن يفخر بها كل أب.. فلم يهفو القلب أحياناً لما يعده بالعذاب؟

ونام ليلته مُسهداً.. وتكرر انتحاله للأعداء لتفادي لقاء القطة وزوجها.. وجاءه رفعت يحاسبه على ابتعاده أشد الحساب فوجد نفسه يزداد إصراراً عليه، وقد حرره ابتعاده عن مركز التأثير المغناطيسي من سحر القطة الأليفة.. وأتاح له تأمل جوانب شخصيتها بموضوعية أكبر، فرأى فيها خدوشاً عميقة لم يرها من قبل، فالقطة جميلة وجذابة وعطاؤها لمن تحب كبير، لكنها من الناحية الأخرى تستمتع كثيراً بأن تختبر جاذبيتها من حين لآخر مع الغرباء وتسعد بغيرته عليها.. ثم تبكى وتتوسل وتشكو ظلم حبيبها لها حين يتهمها بتشجيع الآخرين على الاجترار عليها ويهجرها فلا تهدأ حتى تستعيده مقسمة له على حسن نيتها.. وسوء ظنه بها!.

تأمل الصورة بعد لحظة التنوير فازداد إصراراً على الابتعاد عنها.. وفوجيء بها في مكتبه في الصباح بعد أيام تبكى بين يديه، وتؤكد له أنها كانت تتصور أنها تتصرف مع طبيب الأسنان بطريقة طبيعية، إلى أن فوجئت به يكشف عن «نيتة السيئة» فحرّضت زوجها على سدّ باب بيتها في وجهه!

ثم طالبت بالعودة على وعد أكيد ألا تتكرر المحنة مرة أخرى فلم يلن ولم يرق لها قلبه، وعاملها بتحفظ مشوب بشيء من الازدراء للمرة الأولى، فانصرفت غاضبة وإن لم تياس من استرجاعه بعد حين.

لكنه استعان بإرادته القوية على مقاومة بقايا رصيدها فى قلبه ، وتعمدّ
التهرب من اتصالاتها الصباحية . . وتفادى زياراتها له مع زوجها فى
مكتبه فى المساء ، وفاجأ زوجته صبرية وابنته ريهام باصطحابهما إلى
المصيف قبل مواعدهم المعتاد بشهرين ورجع من المصيف كالمريض الذى
تجاوز مرحلة النقاهة . . وإن لم يسترد بعد عافيته القديمة .

وكانت المحنة الجديدة قد أكسبته طابعاً حزيناً أضيف إلى مرارته
السابقة ، فلاحظ على نفسه زيادة ميله للوحدة والصمت . . واعترف
لنفسه بأن حياته تشهد فراغاً موحشاً لم تكن تشهده خلال ارتباطه بالقطعة
الأليفة ، ومع ذلك فقد ازداد إمعاناً فى الهروب من كل محاولات
لإعادته إلى العش المهجور .

وذات صباح ذهب إلى عمله فجلس إلى مكتبه فى الصباح الباكر يقرأ
الصحف وصوت الراديو الخافت يتردد برفق فى المكان ، فإذا به تشد
انتباهه بعض أبيات من الشعر فى برنامج صباحى ، فيتوقف عن قراءة
الصحيفة ويتمنى لو أعادها المذيع ليسجلها فى أوراقه ولم يتذكر من
مطلعها سوى هذه الشطرة :

هل كان ما بيننا حباً وعشناً؟

ولاحق بقلمه صوت المذيع وهو يقرأ ختامها فكتب وراءه :

- يا أيها الحب الذى مات

- لو يرجع اليوم الذى فات

- لو عاد يوم منك . . عشناه !

ثم وضع القلم وأمسك بالورقة ، وأعاد قراءة ما كتبه وتساءل : هل
يتمنى حقاً لو يرجع الحب الذى مات !

لم يستطع أن يجيب عن السؤال إجابة حاسمة ، لكنه استرجع فى
أسى لحظات السعادة الصافية قبل ظهور أول بقعة سوداء فى ثوب الحب
الأبيض . . فإذا بجرس التليفون يرن . . بصوت القطة الأليفة يبادره ! كل
سنة وأنت طيب أيها «الغادر» ! .

وقبل أن يتمالك نفسه ويسألها عن المناسبة التى استحق عليها هذه
التمنيات الطيبة واصلت حديثها :

اليوم مضى عام كامل على مقاطعتك لنا . . فماذا «فعلت» حتى
أستحق منك هذا الجحود؟ . .

فكاد يجيبها بما يثقل إحساسه بالأسى ، ويفسر لها عمق جرحه منها ،
بأنه إنما كان يظن وقد شارف الخمسين من عمره أنها ستكون «الحب»
الذى يغادر الحياة وهو يطوى صدره عليه . . فإذا بها تبدد الحلم الكبير
بالعبث والاستجابة للطبيعة القططية ، وإذا بها تلامس مياه شاطئ الخيانة
بقدميها مرتين وترجع نادمة ومعتذرة ، ثم تطالبه باعتبار نكوصها عن
الخوض فى المياه العميقة دليلاً أكيداً على عمق حبها له ناسية أنه ما كان
لها أن تقترب من مياه الشاطئ من البداية لو كانت تستحق حقاً أن تكون
بطلة هذا الحلم الموءود ! .

كاد يقول لها كل ذلك . .

وتهياً لأن يقول لها الكثير والكثير ، لكنه تراجع فجأة متمادياً في
الهروب وأجابها في برود :
وأنت طيبة .. مع الشكر ..
فجاءه صوتها مغتاضاً :
إن شالله .. تموت ! .

- ثم سمع صرير التليفون ينعى له الحلم القديم فوجد نفسه يزيح
الصحيفة عن مكتبه بقنوط ، ويتأمل الورقة التي سجل عليها ما سمعه في
البرنامج الإذاعي ، ويجيب نفسه بصوت مسموع :
- نعم كان حياً .. وكان حلماً .

لكنه كان أيضاً خطأ كبيراً منذ البداية ، فمتى يتعلم الإنسان تجنب
الأخطاء؟ .. متى يتعلم الإنسان تجنب الأخطاء؟

جاءت إلى مكتبه بخطاب من صديق يرجوه فيه الاهتمام بأمرها . . . ويذكره في سطور قليلة «بظروفها» التي سبق أن حدثه عنها . . . قرأ رسالة الصديق في لحظات ثم رفع عينيه إليها فرأى «ظروفها» مرتسمة على وجهها الجميل الحزين .

وجّه إليها الأسئلة التقليدية عن المؤهل الدراسي والخبرة السابقة . . . ثم سكت للحظات قبل أن يسألها عن الأجر الذي تتوقعه مقابل عملها . . . ففوجئ بها تجيبه بانكسار : أى أجر تراه . . . أو تستطيع أن تدفعه ! فأكدت له إجابتها صحة ما أكده له الصديق عن دوافعها الحقيقية للعمل !

إنها مثله ومثل الشخصين الآخرين اللذين يعملان معه ، فى حاجة للعمل لأسباب نفسية أكثر منها مادية . . . ولو خيروا جميعاً بين الخواء والفراغ وبين العمل بلا أجر لما ترددوا فى اختيار العمل !

فالثلاثة قد واجهوا محنة الفراغ وانعدام الدور بعد انتهاء الخدمة العسكرية ، ووجدوا أنفسهم فى مرحلة التقاعد وهم فى منتصف العمر .

8 وبعد تجربة مريرة مع الفراغ كادت تنتهى بتدمير حياته الزوجية ، قرر أن يحتمى ضد الفراغ بافتتاح هذا المكتب . . . وبحث عن الشخصين الآخرين بين ضباط الصف الذين أحيلوا إلى التقاعد ، وبدأ تجربة العمل التجارى الصغير للمرة الأولى فى حياته .

أما « ذكريات » ما قبل افتتاحه ، فهو يحاول نسيان مراراتها بكل الطرق ، لكي تواصل سفينة حياته مع زوجته رحلتها للنهاية رعاية لوحيدته « ريهام » التي تقترب من سن الشباب .

لم يعد له فى الحياة من مطمع إلا أن يصل بابنته هذه إلى شاطئ الأمان ، « ويراها » زوجة سعيدة ذات يوم ، ومهندسة ناجحة فى عملها . . أفلا يستحق ذلك منه التغاضى عن مرارة الخذلان !

لم تكن رحلة الحياة مع أمها هادئة ولا مريحة معظم سنواتها ، وخلت الحياة غالباً من عطر الحب ، ولم يبق إلا نداء الواجب الأبوى تجاه ابنته ، وحين أُحيل إلى التقاعد منذ سنوات ازدادت المعاناة معها ، حتى هجر البيت وأقام فى شقة العزوبية القديمة التى مازال يحتفظ بها ، وضاعت الحقيقة بينه وبينها ، فهى تتهمه بأنه قد أصبح « معقداً » وشديد الحساسية وشخصاً لا يحتمل بعد إحالته للتقاعد فى سن الخامسة والأربعين ، وهو يتهمها بأنها لم تحتوا اضطرابه أمام حياة الفراغ وانعدام الدور للمرة الأولى فى رحلة العمر ، ولم تصبر عليه ولم تعنه بحنانها على اجتياز ظروفه الصعبة ، بل كانت عوناً لهذه الظروف عليه بعنادها معه وجفائها وصلابة رأيها واستنكارها الجارح لأن يجلس فى البيت مثل « النساء » فى حين تذهب هى كل صباح إلى عملها !

فهجر البيت إلى شقته القديمة ورفض العودة بإصرار إلى بيته . . وزاد من إصراره على الرفض أنها لم تسع لاستعادته وترضيته بكلمة حب واحدة ، وإنما شنت عليه بدلاً من ذلك حرباً عائلية شعواءً ، تضافرت مع

ظروفه السابقة فى ترسيب المرارة فى أعماقه فشهدت شقته القديمة زيارات خطيرة لعمه وشقيقه الأكبر وخاله وخالتها . . إلخ، وطرحت المشكلة على بساط البحث حتى ملَّ الكلام فيها . . ولم يستجب لإلحاح أحد فى العودة والتغاضى، إلى أن فاجأته «ريهام» بالزيارة بتدبير مُحكم من أمها، وبكت على صدره وذكَّرتَه بمسئوليته عنها وحاجتها إليه وبما تشعر به من حرج أمام الصديقات حين يسألن عنه، فانهارت حصونه أمامها . . ورجع إلى بيته طاوياً صدره على شجونه وأحزانه، ووجد حلاً للفراغ والمرارة فى تحويل شقته القديمة إلى مكتب تجارى صغير يشغل به اهتمامه، وتحملَّ عثرات البداية راضياً حتى اكتسب خبرة العمل، وبدأ يحقق نجاحاً لا بأس به، ويبحث عن مساعدين له بين ضباط الصف المحالين مثله للتقاعد، فاهتدى إلى شخصين عملاً معه من قبل لفترة طويلة، ووجدهما أكثر حاجة للعمل منه إليه . . وأصبح عمله هو حياته الجديدة وعزاه عما يطوى صدره عليه من مرارة الخذلان تجاه زوجته .

واستقر العمل بعد عامين من الاضطراب، فأصبح يفى بأجور العاملين معه ويحقق ربحاً بسيطاً، فاشتدت حاجته إلى سكرتيرة تساعده فيه، وخاض أكثر من تجربة مع السكرتيرات حديثات التخرج من مدرسة التجارة، فما إن تجد إحداهن وظيفة حكومية أو وظيفة فى شركة كبرى بأجر أعلى حتى تترك العمل معه بلا رجعة، لذلك رحب فى أعماقه بهذه السيدة الشابة حين حدثه عنها صديقه وأمل فى أن تستقر فى العمل معه إلى النهاية، إذ هل هناك دافع أقوى من دافع الرغبة فى الانشغال بالعمل عن الأحزان؟ إن طلب الرزق أو الطموح قد يدفعان الإنسان إلى الانتقال

من عمل إلى آخر بلا ندم طلباً للأجر الأعلى، أما دافع «السلوى» فقد يستقر به في العمل إذا ارتاح إليه ولو كان أجره منه أقل من غيره، فلتكن إقامتها بيننا إذن طويلة وليكن تشاركنا جميعاً فيه مهرباً لنا من الآلام!

تذكر وهو يحدثها عن متطلبات العمل ومواعيده ما رواه له الصديق الذي حدثه عنها من ظروفها، فتعجب لما تفعله الحياة أحياناً ببعض التعساء حين كانت طالبة بالسنة الثالثة بكليتها ارتبطت عاطفياً بطالب بالسنة النهائية وتشاربا الحب بإخلاص . . . وحين تخرج الشاب في كليته تقدم لخطبتها وبدأ يستعدان لتحقيق الأحلام وبعد عامين تم عقد القران وإعداد عش الزوجية الصغير وتحديد موعد الزفاف . . . وراحا يلتقيان كل يوم لشراء آخر متطلبات الجهاز لكن الفتى شكا ذات يوم ألماً عارضاً في جانبه الأيمن . . . وتكرر الألم في الأيام التالية، فتوجهها إلى الطبيب معاً وهما يتضحكان ويفسران آلامه العارضة بخوفه الدفين من الزواج! ويفحصه الطبيب فيطلب منه التوجه فوراً للمستشفى لإجراء جراحة الزائدة الدودية التي تهدد بالانفجار . . . ويتصلان بالأهل من عيادة الطبيب ويتوجهان للمستشفى على الفور، ويدخل الشاب غرفة العمليات وهو يعدها ضاحكاً ألا يغيب عنها طويلاً في الداخل . . . وتلتفت هي فتجد أسرتها وأسرتها قد لحقتا بها وأحضرتا ما سوف تحتاج إليه من ملابس ومال، والجراحة الصغيرة انتهت سريعاً لكن المريض لم يسترد وعيه بعدها . . . وحلت الكارثة مع تبشير المساء!

مات الشاب الصغير قبل أيام من موعد زفافه . . . وارتدت «أرملته» السواد قبل أن ترتدى ثوب الزفاف، واشتدت المحنة عليها حتى شارفت

على المرض العصبى . . وبمساعدة من أبويها استردت بعض نفسها
واستجابت للعلاج ثم خرجت للعمل . . أرملة شابة فى الحادية
والعشرين من عمرها وتشاغلته بعملها عن الأحران .

وبعد 5 سنوات مريرة نجح زميل لها فى العمل فى تغيير نظرتها
المتشائمة للحياة . . فقبلت الارتباط به وبدأ يستعدان للزواج . .
واستجابت لمطلبه فى التفرغ لحياتها الجديدة فتخلت عن عملها، وتركزت
كل آمالها فىمن نجح فى بعث الحياة فى القلب الحزين .

وارتدت ثوب الزفاف الأبيض للمرة الأولى فى حياتها ونعمتُ
بالهدوء والأمان . . وبعد عام سخت عليها الأقدار فأنجبت طفلها
الجميل، لكن العواصف قد تهب أحياناً على غير انتظار، فلقد دُعيت
لحضور حفل زفاف إحدى قريباتها فى ناد بأحد أطراف المدينة النائبة،
وتوجهت إليه مع زوجها الشاب وطفلها وجمالها يتألق تحت الأضواء . .
وانقضت السهرة السعيدة وخرج الزوجان فوقفت هى أمام باب النادى
تحمل طفلها الصغير، ونزل هو إلى نهر الطريق لتصيّد سيارة أجرة
عابرة . . ثم طال به الانتظار فقرر أن يعبر الطريق إلى الناحية الأخرى
حيث يكثّر عبور السيارات . . فإذا بسيارة أتوبيس هوجاء تطيح به فتسمع
الزوجة الشابة صرخة الفاجعة كالنعيق . . واهتزت السيدة الشابة أمام
المأساة هذه المرة بأكثر مما ارتجت أمامها فى المرة السابقة . . وناحت أمها
مولولة: أرملة مرتين قبل الثلاثين . . يا لسوء بختك يا ابنتى .

أما هى فلقد مرضت طويلاً . . واعتمدت على المهدئات والمنومات
لفترة طويلة . . وتعذبت طويلاً حتى استطاعت التخلص منها، فنجت

منها بجهد جهيد، لكن التشاؤم كان قد استقر في أعماقها حتى النخاع . . . وطال جمودها أمام المحنة، فسعى أبوها لدى معارفه في إيجاد عمل يساعدها على الخروج منها إلى أن التقى بهذا الصديق الذي حدثه عنها.

تنبه إلى أنها مازالت جالسة أمام مكتبه تنظر إليه في يأس منتظرة «قراره» بقبولها أو رفضها، فتعجب لشكها في احتمال رفضه لها، وقال لنفسه متأملاً: كيف لم تفهم في غمرة أحزانها أنها بغيتي التي أبحث عنها منذ زمنٍ طويلٍ؟

ثم سألها برقة:

- متى تستطيعين بدء العمل؟

فأجابته بلا تردد:

- الآن إذا قبلتني . . .

ثم بعد لحظة صمت:

- الحق أنني لا أريد أن أعود إلى البيت سريعاً . . .

فابتسم راضياً ثم نهض من وراء مكتبه وهو يقول لها:

- إذن تفضلني معي . . .

ثم قادها إلى الغرفة المجاورة، وأشار لها إلى مكتبها الجديد وسلمها مفاتيحه . . . وبعض الأوراق التي طلب منها نسخها، ثم رجع إلى مكتبه

متفائلاً وهو يفكر:

- من يدري ربما يكون الأوان قد حان لأن يتخلص «الجميع» من كل
الأحزان!

دخل محطة القطار يحمل حقيبته فى يده، فأتجه إلى الرصيف ودخل عربة الدرجة الثانية، وأخرج من حقيبته كتاباً وصحيفةً، ثم استرخى فى مقعده ناشراً صحيفته بين يديه، رحلة قصيرة لا تستغرق أكثر من ساعتين لكن ما أبعد المسافة بين الواقع وبين الأحلام، وشتان بين حاله وهو يقوم بها الآن راجعاً من زيارته الشهرية لأمه العجوز، وبين حاله حين قام بها للمرة الأولى منذ ثماني سنوات، كانت رحلته يوماً حزيناً ومحبطةً لكل الآمال، فضاقت بكل شىء فيها من وجوه الركاب إلى صوت عجلات القطار التى تخيلها تنعى إليه برتابتها كل الأحلام.. كان قد تخرج قبلها ببضعة شهور، وتلقى أولى الطعنات فتجاهلته كليته ولم تعينه معيداً بها، وضاعت وعود من وعدوه بالمساعدة عبثاً، فلم يجد عملاً بأحد مستشفيات القاهرة لبقى قريباً من فرص النجاح، وقريباً وهو الأهم من حلم السعادة ثم توالى بعدها الطعنات، ورفعت فتاة القلب التى سكتته طوال سنوات الدراسة يديها يائسةً من أمل اجتماع الشملى، وقالت له باكية:

- ضاعت كل الأحلام.. ولم أعد أقوى على احتمال ما أتعرض له من ضغوط.

9 فى نفس فناء الكلية الذى نمت فيه بذرة الحب بينهما، نعت إليه انهيار الأحلام بعد مقاومة بطولية من جانبها.

قالت له:

- لا أمل لنا.. وأنت تعرف أبى أكثر منى.. إنه جبار ولا يآبه

لحديث الحب . . . وقد خيرني بين قبول من يرشحه لي ويراه مناسباً، وبين أن يُطلق أُمى متهمًا إياها بمساندتي في جنوني ورغبتى في الارتباط بك فماذا أفعل؟

وانهمرت دموعها الغزيرة حتى لفتت أنظار العابرين من الطلبة والأساتذة، فقال لها متألمًا: لا لوم عليك فى شىء . . . وإنى أعفك من عهدك معى . . . وأتمنى لك السعادة من كل قلبى .

وفى جلسة المساء بالمقهى الذى يقضى به سهراته مع أصدقاء نفس الدفعة من كلية الطب قال لأقربهم إلى قلبه: لا أستطيع أن أطالبها بما لا طاقة لها به، ويكفيها أنها قد أخلصت لى الحب صادقة طوال خمس سنوات، أما أنا فكيف أستطيع أن أطالبها بالصمود لضغط أبيها وتهديده أكثر مما فعلت، وهو أستاذنا بالكلية وقد خبرنا طويلاً عناده وقوته!

وفى طريق العودة إلى بيته قال لصديقه الذى يحاول أن يخفف عنه حزنه واكتئابه:

- لست أدعى الشجاعة والاستهانة بما حدث . . . ولو فعلت ذلك مع أحد فإنى لا أستطيعه أمامك . . . فالحق إنى مهزوم فى أعماقى حتى الحضيض، وأسرى عن نفسى أحياناً بمحاولة التماس العذر لمن هدموا أحلامى حتى لوالدها الخطير الثرى ابن الأسرة العريقة، الذى رفض بإصرار أن يسمح لى بالتقدم لخطبة ابنته، وأبرر له موقفه منى بفقري وبساطة أسرتى واستحالة أن يقبل بى وأنا خريج بائس لا أمل فى وظيفة جامعية ولا أمل فى مستقبل لامع كمنافسى الآخر ابن الأسرة الكبيرة

والموعدود بكل فرص النجاح . . لكنى حزين عليها أكثر من حزني على
نفسى وكل دعائى لها هو ألا تشقى بحياتها مع هذا «الأخر»، وأن
تعوضها الحياة عما حرمتنى منه من هناء .

وشهدته جلسة الأصدقاء فى المقهى بعد ذلك كل مساء، حزينا وعازفاً
عن المشاركة فى المناقشات الثقافية التى كان يشارك فيها بحرارة من قبل،
وقال له صديقه متأملاً حاله :

- احترس لصحتك فأنت تزداد نحولاً واكتئاباً كل يوم .

فلم يجبه إلا بالابتسامة الحزينة، وواصل مشاركته للأصدقاء فى
جلستهم اليومية بلا حماس .

ثم خابت آخر الآمال . . وتخلّى عنه من وعدوه بالسعى فى تعيينه
بأحد المستشفيات الجامعية بالقاهرة، ليوصل دراساته العليا ويترقب
فرص النجاح، وجاءه خطاب التعيين فى مستشفى حكومى صغير فى
بلدة مغمورة على مسيرة ساعتين بالقطار من القاهرة فهمّ برفض الوظيفة
وتساءل: ماذا يربطنى بهذه البلدة الخاملة لكى أدفن آمالى وطموحى بها؟

ثم تذكر واجبه تجاه أمه الأرملة العجوز التى كافحت معه كفاح
الأبطال، وتحملت جفاف الحياة معه بالمعاش الحكومى الضئيل حتى
تخرج فى كليته، فاستسلم لمصيره وودع أمه دامعاً وركب القطار إلى هذه
البلدة الخاملة كارهاً كل شىء فى الحياة .

وبدأ عمله كطبيب شاب فى البلدة الصغيرة مُضمراً السخط والضيق
بكل شىء . . بمأواه فى سكن الأطباء . . وبزملاء المستشفى الذين طال .

عهدهم بالحياة بعيداً عن أضواء العاصمة ففقدوا الحماس لأشياء كثيرة . .
بالمرضى البؤساء الذين تحولوا في عينيه إلى رمز لهزيمة أحلامه على كل
الجهات .

وفي نهاية كل شهر يركب القطار عائداً إلى القاهرة فيمضي بضعة أيام
مع أمه . . ويقدم لها بعض ما يخفف عنها جفاء حياتها ، ويلتقى بأصدقاء
الزمن القديم بالمقهى ويتسقط - في حذر - أخبار فتاة القلب الحزين .

وفي إحدى زياراته الشهرية للعاصمة . . أنهى إليه أقرب الأصدقاء
خبر زفاف فتاته إلى غريمه الثرى وسفرهما معاً في رحلة شهر العسل إلى
أوروبا . . فتجدد ألم الجرح الغائر وقال لصديقه : فلتطب لها الحياة حيث
تكون . . فالحق إننى أزداد إشفاقاً عليها مع مرور الأيام ، وأعفيها نهائياً
من كل لوم .

وفي «مهجره» الجديد عاش منطوياً على نفسه يقضى وقت فراغه
بالمستشفى يقرأ ويسمع الموسيقى ، ويعزف عن مخالطة زملائه الأطباء نافرأ
من كل شيء . . وبعد شهور أخرى اكتشف في أحد زملائه الأطباء ميولاً
ثقافية ذكرته باهتمامات الزمن السعيد ، فمال إليه وبدأ يألف صحبته
والحديث معه ، وكان زميله يقيم في نفس البلدة وله بها عيادة خاصة فسأله :

- لماذا تحكم على نفسك بالسجن داخل هذا المستشفى ، ولماذا
لا تتخذ لنفسك مسكناً في البلدة يكون أيضاً عيادةً مسائية لك؟

وبعد أيام قاده إلى أحد تجار البلدة ليستأجر منه شقة صغيرة بالدور
الأرضى من بيته ، وتساهل معه صاحب البيت الذى يقيم في نفس المنزل

فى شروط الإيجار، ورحب به بألفة كأنما يعرفه من قبل، فوجد الطبيب الشاب قلبه يتفتح للمرة الأولى لأحد أبناء هذه البلدة المغمورة التى يعتبرها مقبرة الأحلام، وعاونه زميله الطبيب وصاحب البيت فى تأثيث الشقة وإعداد غرفتها المطلة على الشارع لتكون عيادةً طبية بسيطة، وضمناه لدى تاجر الأثاث فى تقسيط الثمن واستقبل حياته فى مسكنه الجديد وهو أقل تشاؤماً وضيقةً بالحياة.

وانتظمت حياته بعد ذلك بين العمل فى المستشفى فى الصباح وبين مسكنه الصغير، وتعلم الطهو وإعداد الطعام سريعاً، فاعتاد أن يرجع فى الظهر فيتغذى وينام بعض الوقت ثم يصحو من نومه ويصنع قهوته، ويفتح باب الشقة على مصراعيه إيداناً باستعداده لاستقبال المرضى، ويمضى فترة المساء فى غرفة الكشف يقرأ ويسمع الموسيقى إلى أن يزوره مريض.

واعتاد صاحب البيت أن يمرّ به فى المساء فيمضى معه بعض الوقت قبل أن يصعد إلى مسكنه بالدور العلوى، فازدادت علاقته به توثقاً واستراح لروحه الودود.

وبواسطة صديقه طبيب المستشفى عرف الطريق - فى ليالى الصيف - إلى جلسة بعض الزملاء على رصيف محل للخرداوات بشارع البلدة الرئيسى حيث يتجمع بعض الأطباء والمحامين وتجار المدينة كل ليلة يستروحون نسيم الليل ويشربون الشاي، ويتحدثون فى أمور الحياة.

ووجد فى هذه الجلسة ترويحاً جديداً، فاندمج فيها وحافظ على مواعدها بعد إغلاق العيادة واكتشف فى أحاديث أفراد الشلة ما يستحق

الاستماع إليه والمشاركة فيه ، ووجد لديهم ترحيباً به بالرغم مما أبداه من عزوف عن صحبتهم فى البداية .

وعن طريق أحد أفراد هذه الشلة من المحامين تعلم هواية صيد السمك فى الترعة القريبة ، واقتنى أدواتها واكتسب خبرتها ، وصاحب المحامى الصديق فى رحلات صباحية للصيد فى أيام الجمع واستراح لمودته وأريحته ففضى معه أيام الأجازات الرسمية فى صيد السمك .

وبعد قليل وجد نفسه يشارك فى كل المناسبات الاجتماعية لهؤلاء الأصدقاء الجدد ، فقلت مساحات الفراغ والوحشة فى حياته ، وشارك أيضاً فى «مؤامراتهم» المدبرة لحث أفراد الشلة من أصحاب الأسر على دعوة الباقين إلى غداء جماعى فى المناسبات المختلفة .

وشيناً فشيناً وجد نفسه يألف الحياة والبشر فى هذه البلدة المغمورة ، ويعجب لنفسه لماذا أغلق قلبه دونها فى البداية ، وواظب على رحلاته الشهرية لزيارة أمه والالتقاء بزملاء الزمن القديم فى المقهى الذى شهد حماس الشباب وأحلامه الوردية ، وكرر دعوته لأمه للإقامة معه فى مسكنه الصغير بهذه البلدة الهادئة ؛ فاعتذرت من جديد برغبتها فى ألا تفارق بيتها الذى عاشت فيه سنوات عمرها ، وفى إحدى هذه الزيارات تناهت إليه - فى جلسة المقهى - أنباء عن تعاسة فتاة القلب القديم مع زوجها الذى فرضه عليها أبوها ، وعن نزاعاته معها وهجرها له عدة مرات لاعتدائه عليها بالضرب الوحشى ، وخفق قلبه بشدة وتجنب التعليق عما سمع ، لكيلا يجدد ذكرى قصته الحزينة فى أذهان

فى شروط الإيجار، ورحب به بألفة كأنما يعرفه من قبل، فوجد الطبيب الشاب قلبه يتفتح للمرة الأولى لأحد أبناء هذه البلدة المغمورة التى يعتبرها مقبرة الأحلام، وعاونه زميله الطبيب وصاحب البيت فى تأثيث الشقة وإعداد غرفتها المطلة على الشارع لتكون عيادةً طبية بسيطة، وضمناه لدى تاجر الأثاث فى تقسيط الثمن واستقبل حياته فى مسكنه الجديد وهو أقل تشاؤماً وضيقتاً بالحياة.

وانتظمت حياته بعد ذلك بين العمل فى المستشفى فى الصباح وبين مسكنه الصغير، وتعلم الطهو وإعداد الطعام سريعاً، فاعتاد أن يرجع فى الظهر فيتغذى وينام بعض الوقت ثم يصحو من نومه ويصنع قهوته، ويفتح باب الشقة على مصراعيه إيذاناً باستعداده لاستقبال المرضى، ويمضى فترة المساء فى غرفة الكشف يقرأ ويسمع الموسيقى إلى أن يزوره مريض.

واعتاد صاحب البيت أن يمرّ به فى المساء فيمضى معه بعض الوقت قبل أن يصعد إلى مسكنه بالدور العلوى، فازدادت علاقته به توثقاً واستراح لروحه الودود.

وبواسطة صديقه طبيب المستشفى عرف الطريق - فى ليالى الصيف - إلى جلسة بعض الزملاء على رصيف محل للخرداوات بشارع البلدة الرئيسى حيث يتجمع بعض الأطباء والمحامين وتجار المدينة كل ليلة يستروحون نسيم الليل ويشربون الشاي، ويتحدثون فى أمور الحياة.

ووجد فى هذه الجلسة ترويحاً جديداً، فاندمج فيها وحافظ على مواعدها بعد إغلاق العيادة واكتشف فى أحاديث أفراد الشلة ما يستحق

فابتسم لكلمة «ناجح» فى باطنه ، واستعاد وجه والد فتاته الصارم وهو يهدر فى وجه ابنته متعجباً كيف تجرؤ على أن «تُدخل» إلى عائلته العريقة شاباً بائساً لا أهل له ولا مال؟

واسترد نفسه من خواطره وقال للرجل الطيب : مازال الرزق شحيحاً . . ومازلت لا أقدر على تكاليف الزواج!

ولم يقتنع الرجل بأسبابه مؤكداً له أن أكثر من أسرة كريمة من أسر هذه البلدة ترحب بشاب مسقيم و«ناجح» مثله . . فتجددت الغصة فى قلبه لتكرار «الكلمة» المثيرة للتأمل ، وشكر الرجل كثيراً ووعده بالتفكير فى الأمر ، ومضت الحياة فى طريقها المرسوم ، وحثه زملاؤه بالمستشفى على التقدم لامتحان دبلوم الجراحة قبل أن يفوت الأوان ، فرجعت رحلاته الدورية إلى القاهرة للتردد على الكلية وأداء الامتحان .

وتعجب لنفسه كيف أصبح يفتقد مسكنه الصغير بالبلدة المغمورة وأصدقاءه وزملاءه وجيرانه فيها ، ليتعجل إنهاء مهمته بالمدينة الصاخبة ليرجع إليهم؟

حتى الشتاء الذى كان يضيق به فى البداية لأنه يحجب الرفاق عن الجلسة الليلية ، ويطيل من ساعات وحدته بالمساء قد ألفه أخيراً ، واكتشف له مسرات جديدة تقصر من لياليه الطويلة ، كتبادل الزيارات المنزلية مع صاحب البيت ، والمحامى رفيق صيد السمك . . والطبيب المثقف الذى كان أول من اقترب منه ، وكالسهر أمام شاشة التلفزيون قبل

القراءة فى الفراش ، ولم يكن قبل ذلك يطيق صبراً على الجلوس أمامه أكثر من بضع ساعة ، ومن حين لآخر تخطر فتاة القلب فى البال ، فيرقُّ لذكرى أيامها الجميلة ويدعو لها بالسعادة حيث تكون .

وتساءل وهو راجع ذات يوم من رحلة قاهرة بالقطار إلى بلدته ، ترى أين ولمن قرأت تلك العبارة :

- ما كان حزناً ذات مرة قد أصبح الآن سلاماً !

وأجهد ذاكرته ليتذكر اسم قائلها فلم تنجده الذاكرة ، وخبّن أنه لابد قد قرأها فى المجلة الثقافية التى تأتيه بالبريد كل شهر فى «مهجره» ، التى حافظ على اشتراكه السنوى فيها تذكراً لاهتمامات فترة الأحلام الجميلة وذكرى أصدقاء المقهى القاهرى ومناقشاتهم الحارة .

ثم نهض من إغفاءة القيلولة ذات يوم متكاسلاً ، فاغتسل وارتدى ملابسه ثم صنع قهوته وحملها إلى مكتبه بغرفة الكشف ، وفتح باب الشقة الصغير وأضاء اللمبة الكهربائية المعلقة فوق اللافتة التى تحمل اسمه على نافذة الغرفة ، ورجع إلى مكتبه وراح يحتسى القهوة ببطء ، وهو يتشاغل بالقراءة فى كتاب قديم أملاً أن يزوره هذا المساء بعض المرضى حتى ولو عاجلهم بغير أجر ليتسلى بالحديث معهم ، فلم تمض لحظات حتى سمع طرقات خافتة على باب مسكنه ، وغادر مكتبه ليرى ذلك الطارق الذى يأبى الدخول فإذا به يجد نفسه أمامها ! هى بعينها وبوجهها الوديع الجميل ونظرتها الخجول المترددة . . فتاة القلب الحزين تقف عند الباب وتنظر إليه فى حياء وابتسام وفى يدها حقيبة صغيرة !

وتولته دهشة طاغية ودعاها مضطرباً ومرتبكاً للدخول وتنبه للحقبة الصغيرة التي تحملها، فتقدم منها وحملها عنها ودخل وراءها غرفة المكتب وهو معقود اللسان من الدهشة والمفاجأة.

وجلس أمامها ينظر إليها بحنان جارف، وهي تجلس أمامه حانية الرأس لا تقوى على مواجهة نظراته. . وترقب أن تبدأ الحديث فروت له في كلمات متقطعة أنها طُلِّقت من زوجها الذي فرضه عليها أبوها منذ عامين، وأنها ترقبت أن يسعى للاتصال بها، فخابت توقعاتها وتمسكت بالأمل في أن تلتقى بأحد زملاء الدفعة القدامى من أصدقائه، لتسقط منه أخباره، إلى أن التقت بأحدهم وعرفت منه عنوانه، وفكرت مراراً في الاتصال به إلى أن تسارعت الأحداث حولها وأجبرتها على الإقدام على هذه الخطوة الجريئة. . فلقد تجرعت كؤوس الشقاء مترعة في زيبتها التي فرضها عليها أبوها، وتخلصت منها بالعناء الشديد وبعد نزاعات قضائية مهينة، ورجعت كسيرة الخاطر إلى بيت أبيها، فلم تمض شهور حتى وجدته يعرض عليها زوجاً جديداً تتوافر فيه المواصفات اللائقة من وجهة نظره من ناحية الأسرة والثراء والمركز المرموق وإن كان مطلقاً وله أولاد، وأجبرها على استقباله في البيت فشعرت بالاختناق لمجرد الحديث معه، وأعلنت رفضها القاطع لأبيها فهاج وماج وحاول أن يكرر تهديداته المؤسفة لها، فتوسَّلت إليه أن يدعها تجرب أن تعيش حياتها بإرادتها هذه المرة بعد أن استسلمت لإرادته في المرة السابقة، وتجرعت التعاسة بغير جريرة، فواصل ضغوطه القاسية عليها، ووجدت نفسها تقترب من نفس الهاوية مرة أخرى، فقررت أن تأخذ زمام أمرها

بيدها للمرة الأولى ، وتبحث عن سعادتها بنفسها ، وقبل أن تتخذ أى قرار بشأن حياتها قررت أن تجيء إليه وتسأله السؤال المصيرى :

- هل مازلت تريدنى؟

ووجد نفسه يهتف منفِعلاً :

- بالطبع أريدك ولم أَرُدْ سواك . . لكن هل تقبلين أنت بى ومازالت ظروفى على نفس حالها؟

وغلبت مشاعره ففطرت من عينيه دمعة ساخنة وسمعها تجيبه بإصرار :

- إننى مستعدة لأن نبدأ حياتنا الزوجية على الفور فى هذه الشقة الصغيرة وهذه البلدة الهادئة الجميلة . . فهل تقبل أنت بى؟

ولم يدر بماذا يجيب وسألها كأنما يعفى ضميره من آخر مسئولية تؤرقه :

- وتهديدات أبيك القديمة . . ألا تخشينها؟

فأجابته :

- إنه فى النهاية أبى وقد يقاطعنى شهوراً أو بضع سنين لكنه لن يؤذينى . . ولن يعاقب أُمى على جرم لم ترتكبه . . وأنا فى النهاية سيدة فى الثامنة والعشرين من عمري ومن حقى أن أزوج نفسى لمن أحببت ، وأستطيع أن أنتقل للعمل فى مستشفى هذه البلدة ونبنى حياتنا معاً خطوة خطوة .

وتولته فرحة طاغية حين سمع كلماتها الأخيرة وهروا إلى الباب
المفتوح وصاح فى انفعال شديد منادياً صاحب البيت :

- يا حاج سيد . . يا حاج سيد!

ونزل الرجل درجات السلم منزعجاً . . فقاده من ذراعه إلى غرفة
الكشف وروى له القصة فى كلمات خاطفة ، فاستوعب الرجل الموقف
سريعاً ورحب بالسيدة الجميلة ثم فاجأه الطبيب الشاب بقوله له :

- فات موعد قطار العودة للقاهرة . . فهل تستضيف زميلتى الطبيبة
هذه بين أسرتك للصباح حتى ترجع إلى القاهرة خوفاً من أن تعلق عليها
أسرتها - ثم نتزوج بعد أيام؟

فاتسعت ابتسامة الرجل وهو يتأمل السيدة الجميلة والحقيبة الصغيرة
التي ترقد إلى جوارها ، ثم قال لصديقه الطبيب الشاب بذكاء فطرى :

- أما عن استضافتها فعلى الرّحب والسعة فى بيتى وبين أسرتى . .
لكن فطنتك يا دكتور؟ «عروسك» قد جاءت إليك بحقيبة ملابسها
مستجدة بك مما ينتظرها هناك وتريد أن تعيدها أنت غداً للقاهرة؟

ووقف الطبيب حائراً . . ونظر إلى فتاته القديمة متسائلاً كأنما يريد أن
يتأكد من صدق ما فهمه صاحب البيت بحكمته الفطرية ، وغاب عنه
تقديره فابتسمت وأحنت رأسها فى حياء مؤمنة على ما فهمه الرجل
الطيب ، فضحك صاحب البيت فى ابتهاج وربّت على كتف صديقه
الطبيب داعياً إياه وعروسه للصعود معه إلى منزله لتتصل منه فتاته
بأسرتها وتبلغها بمكانها وقرارها ، ولتستريح السيدة الجميلة من عناء

السفر وتغتسل وتبدل ملابسها ريثما يدعو صاحب البيت الأصدقاء
والأحباء لشهود قران صديقهم الطبيب الشاب فى بيته .

وتقدم الرجل الموكب على درج السلم صاعداً إلى مسكنه ، ومن خلفه
الطبيب الشاب يحمل الحقيبة الصغيرة ، ولا يكاد يعى ما حوله من
الانفعال . . وإلى جواره فتاة القلب التى استردت فى لحظات نضارتها
القديمة تختلس النظر إليه وتراقب انفعالاته بإشفاق ، ومن حين لآخر
يلتفت إليه صاحب البيت ويكرر عليه سؤاله الاستنكارى متعجباً :

جاءتك بحقيبتها بعد كل هذه السنين . . ثم تريد أن ترجعها إلى
القاهرة؟!!

فيضحك الحبيبان القديمان فى ابتهاج وارتباك ، ويشاركهما الرجل
الطيب ضحكاتهما مستمتعاً ومتهللاً!

هل يمكن حقًا أن تتغير المشاعر من النقيض إلى النقيض ، هكذا كل يوم وإلى مالا نهاية؟ . . وهل قُدر على أن أحيأ أيامى كلها فريسة لهذه التقلبات الحادة . . أنعم بالحب قليلاً وأشقى بالجفاء والقسوة معظم الأوقات؟ . . إن زملائى يقولون لى إنها لا تحبنى ولا ترانى فتى أحلامها ، إنها قبلت بخطبتى لها طلباً للاستقرار أو الزواج كأى فتاة عادية ، لم تشأ أن تضيع فرصة لها للارتباط بشاب مناسب ، لكن حتى لو كان الأمر كذلك فلماذا تمتحنى بالعذاب كل يوم؟ ولماذا لم تقل لى بعد فترة من الخطبة إنها فشلت فى أن تستجيب لمشاعرى أو تتقبلنى نفسياً ، ولا تريد لنفسها أن تتزوج شاباً لا تحبه ، ولهذا فهى تريد أن يبحث كل منا عن سعادته فى اتجاه آخر؟ ولماذا تفضل أن تظل محتفظة بالخيط الرفيع الذى يربطنى بها حتى اللحظة الأخيرة ، وكلما ضقت بقسوتها وغرورها جذبتنى إليها وأنستنى بعض معاناتى معها؟

إن زملائى وزميلاتى فى الهيئة التى أعمل بها لا يحبونها ورغم أنه تجمع مكاتبنا المتجاورة صالة واسعة فعلاقات معظمهم بها متوترة . . وقد قابلوا خطبتى لها بفتور ، وقال لى أكثر من واحد منهم إنه يُشفق علىّ من غرورها وتناقضاتها فلم أسمع له ، أما أقربهم إلى قلبى وهى زميلتى سميحة ، فلم تكن تكرهها ، وإن كانت تعيب عليها بعض تصرفاتها . . وقد قابلت خطبتى لها بمزيج من الابتهاج لى والإشفاق علىّ ، إنها سيدة فاضلة فى الرابعة والثلاثين من عمرها وزوجة وأم سعيدة فى حياتها الخاصة ،

سبقتنى فى التخرج فى نفس الكلية بأربعة أعوام، وساعدتني كثيراً فى عملى حين التحقت به، وأعطتني خبرتها عن العمل والزملاء الذين نتعامل معهم، فارتحت إليها كثيراً واعتبرتها أختاً لى وأمينة لأسرارى، وحين لاحظت وكهى بفتاة القلب «وفاء» نبهتني إلى ضرورة الاعتدال فى مشاعرى تجاه هذه الفتاة التى تجيد التحكم فى مشاعرها ولا تستسلم لعاطفتها أبداً. . . وسمعت نصيحتها شاكرًا لكنى لم أستطع الالتزام بها، فلقد كان حبنى لوفاء طوفاناً جارفاً جرف فى طريقه كل مقاومة واكتفيت باستشارتها من حين إلى آخر فى تفسير بعض تصرفات فتاة القلب التى بدت لى غامضة، فلقد فاتحتها بحبنى ورغبتى فى خطبتها، ورحبت بى وشجعتني على التقدم لأبيها وقالت لى إنها تحبنى أيضاً. . . لكن تصرفاتها ظلت متناقضة وغريبة لفترة طويلة، تغار من حديثى إلى زميلاتي وخاصة إلى السيدة سميحة، وتنهاني عن الحديث مع أى زميلة سواها، وتثور علىّ فى نفس الوقت إذا لفتُ نظرها بإشفاق إلى صلتها الحميمة بأكثر من زميل لنا فى الإدارات الأخرى، خاصة من هم أكبر سنًا ومنصبًا وتتهمنى بالتخلف والجمود وتصرخ فى. . . كيف تعيش مع صاحب عقلية كهذه العقلية الرجعية؟ فأراجع مرغمًا وأسحب اعتراضى وهى أيضاً تطلب منى الكثير. . . وتطالبنى بشقة أفضل من الشقة التى أعدتها للزواج مع أنها شقة مناسبة للغاية، وبشبكة فوق قدرتى واحتمالى. . . وبإقامة حفل الزفاف فى فندق كبير لأنها ليست أقل من أى فتاة فى أسرتها. . . وفى نفس الوقت تطالبنى بتحمل كل تكاليف تأثيث الشقة وحدى، ودون أية مساهمة منها أو من أسرتها الكبيرة فى الجهاز، سوى بملابسها

الشخصية، وتصرخ مؤكدة لى أن هذا هو العرف السائد فى أسرتها
لإثبات مدى «اعتزاز» العريس بعروسه، وليس عن عجز أو نقص
إمكانيات أسرتها !

وأستشير زميلتى المخلصة، فتصحنى بالرفض، وتفسر لى طلباتها
هذه بأنها تشعر بعمق حبى لها ورغبتى فيها وتريد أن تفرض على كل
رغباتها. . وأحاول الاستجابة لصوت الحكمة فى نصيحة زميلتى
فأجدنى عاجزاً بعد قليل عن الصمود. . !

وتمضى الأيام فألاحظ أن فترات صفائنا قليلة وفترات مشاحناتنا
طويلة. . وأن مزاجها يزداد عصبية وحدةً يوماً بعد يوم، وألاحظ
تهجمها علىّ فى كل مناسبة دون مراعاة لشعورى أمام أسرتها أو أمام
زملائى، فأياس منها وأرتد مبتعداً فلا تدعنى لنفسى طويلاً وإنما تطالعنى
بعد أيام، أتجرع خلالها العذاب، مُترعة بالوجه الباسم القديم فأنسى
ما تقدم وأواصل أيامى متشابهة أنتقل من السعادة إلى العذاب، وتواصل
هى التذبذب بين الرضا والسخط إلى ما لا نهاية. . وتكثر أعارها
لرفض زيارتى لها فى بيتها أو للخروج معى بعد مواعيد العمل بحجة
«الصداع» الدائم الذى يحول بينى وبين أن أسعد. . وليت الأمر اقتصر
عند هذا الحد. . فلقد تجاوزت الحدود مراراً فى تعاملها معى أمام
زملائى. . وأصبحت نظرتها الغاضبة الساخطة تخرجنى بينهم حين
تلومنى بعنف لا يحتمله الموقف على أى كلمة أو عبارة لا توافق
هواها. . والزملاء مشفقون. . وأنا مُحرج حتى نهرتها زميلتى الطيبة
سميحة أكثر من مرة. وقاطعتها تعاطفاً معى.

وفكرت فى كلماتها المؤلمة طويلاً، وقررت أكثر من مرة أن أفك عن
نفسى أسر حبها . . . وبتُّ أكثر من ليلة وأنا عاقد العزم على أن أذهب
إلى العمل فى الصباح لأقول لها أمام زملاء:

يا أنستى لقد كان «ذنبى» الذى عاقبتنى به طويلاً أمام زملائى هو أنى
أحبك ، لكنى الآن قد تخلصت من هذا «الذنب» وكفرت عنه . . . ولم
أعد أحبك ولا أريد أن أتزوجك فاحتفظى بشبكتك هدية منى أو رديها
إذا أردت . . . لكنى أخلع من يدي الآن دبلتك ومعها أخلعك من حياتى
نهائياً .

اعتزمت ذلك مراراً وقررت أن أنفذه بهذه الطريقة العلنية، وتخيلت
نظرات الارتياح والشماتة التى ستعلو وجوه معظم الزملاء والزميلات
الذين يكرهون فيها غرورها وتكبرها وتجبرها على . . . وتخيلت
ابتسامات الرضا والتشجيع التى سيخسونى بها، فذهبت إلى العمل أكثر
من مرة مصمماً على أن أنفذ ما اعتزمته، فما إن أقترب من مكتبها
متجهماً حتى تحس بغريزتها بما أنتويه ولا تدع لى فرصة لتنفيذه . . . وإنما
تبادرنى بابتسامة ساحرة، وتقول لى بصوت رقيق شاك:

- أهكذا تتركنى بلا كلمة واحدة منذ يومين . . . وتدعنى لقلقى
وحيرتى طوال هذه الفترة؟! .

ثم تلتفت إلى زملائى وزميلاتى «وتشكو» لهم من «قسوتى» عليها
حتى جافاها النوم طوال اليومين الماضيين . . . ! وأسترده ثقتى فى نفسى . . .
وفى «حبها» لى . . . وأعيش أسعد لحظات عمري، وتخصنى الساحرة

باهتمامها ورعايتها يوماً أو بعض يوم، حتى تكاد تُشعرنى بأنى ملك
وبأنها جارية فى بلاطى ثم تعود بعد قليل إلى سيرتها الأولى، وتتكرر
القصة بنفس التفاصيل وأشكو لزميلتى الطيبة فتقول لى إنها تلعب
بخيوطى كيف تشاء، وكلما شعرت بقرب تحررى من رقها جذبت
خيوطى إليها، وقربتنى منها فأنسى لها كل إساءة ولم يكن ذلك خافياً
علىّ تماماً فلقد كنت أعرفه، لكننى عاجز عن التحرر من أسرها . . ومن
المؤلم حقاً أن يعرف الإنسان داءه ولا يستطيع أن يتخلص منه .

وهكذا ظللت أخدع نفسى بحبها إلى أن جئت هذا الصباح إلى
العمل . . ودخلت إلى الصالة الكبيرة التى تجمع مكاتبنا، وألقيت تحية
الصباح على زملائى واتجهت بنظرى كالعادة إلى مكتبها فوجدته
خالياً . . ووجدت بعض الزملاء ينظرون إلى نظرات غريبة، كأنما
يعرفون شيئاً ما ويخفونه عنى فسألتهم عنها فقالوا إنها جاءت للعمل
لدقائق وانصرفت، اتصلت ببيتها فجاءنى صوت أمها متحفظاً يقول لى
إنها ليست فى البيت ولا تعرف متى تعود، بدأت عملى فلاحظت بعد
قليل أن جواً من الوجوم يسود الإدارة ورفعت نظرى من فوق أوراقى
فرأيت أكثر من زميل ينظر إلىّ فما إن تلتقى عيوننا حتى يتجاهلنى . . !
وتأكدت من أن شيئاً ما قد حدث، واتجهت إلى مكتب زميلتى المقربة
وسألتها عما لاحظته . . فنظرت إلىّ طويلاً ثم قالت لى والزملاء
يتشاغلون عنا بأوراقهم :

فلانة تنهى إجراءات سفرها إلى الخارج، وقد قدمت هذا الصباح
طلباً للحصول على إجازة دون مرتب .

السفر للخارج؟ وإجازة دون مرتب! خطيبتى ستسافر للخارج بغير علمى؟ لماذا . . كيف؟

وعرفت القصة التى تحاشى زملائى أن يواجهونى بها حين جئت للعمل هذا الصباح الكئيب . . لقد ركلتنى فتاتى الغادرة التى تلاعبت بى شهوراً طويلة من حياتها فى لحظة واحدة . . وبلا أى إحساس بالذنب تجاهى أو الندم! لقد ارتبطت بزميل فى إدارة أخرى من إدارات الهيئة أُعير للعمل فى إحدى دول غرب إفريقيا وهما يستعدان الآن للزواج والسفر خلال أيام . . أما خطيبتى بها فما أهون أمرها، وأما قلبى الذبيح فما أهون شأنه . . فشيكى والدبتان سلمتهما الغادرة لزميلتى الطيبة سميحة، وطلبت منها فى كلمات متعجلة ألا أغضب منها لأنها لم تكن لى من البداية . . ولم نكن لنسعد معاً لأننا شخصيتان مختلفتان . . وإمكاناتى محدودة وهى طموحة . . ولن تسعد بحياة جافة بسيطة! ثم غادرت المكان بلا وداع . . وسيعقد القران غداً . . وسيتم السفر هذا الأسبوع . . ولا عزاء للمخدوعين والتعساء!

ظللت أنظر مشدوهاً إلى زميلتى سميحة، وهى تروى لى القصة العجيبة بعبارات مخففة . وتحاول تهوين الأمر كله على . . وتقول لى إن على أن أشكر الله كثيراً أن أنقذنى من الحياة مع إنسانة لا تحببى ولا تقدرنى، ولم تكن مخلصه لى من البداية، وإنما اتخذت من خطيبتى وحبى لها وسيلة خسيصة لإشعار «الآخر» بأنه سيفقدها للأبد لكى يتحرك ويتقدم للزواج منها، وسمعت زميلتى تقول لى إننى أستحق فتاة أجمل وأفضل منها، وأنها ستقدمنى إلى جارة لها آية فى الجمال

والأخلاق والمنبت الطيب ، وستكون أفضل عزاء لى عما تعرضت له من
غدر وخيانة وتلاعب بمشاعرى الصادقة من هذه الغادرة . . وستثبت لى
الأيام أننى قد نجوت من مصيدة كريهة ، فخيّل إلى فجأة أن وجه سميحة
ينتفخ وهى تحدثنى كالبالون ثم يعود إلى طبيعته بعد فترة ثم يرجع
للانتفاخ من جديد! ولاحظت بدهشة واستغراب أن شفيتها قد تضخمتا
كثيراً كثيراً، وهى تتحدث إلى حتى خشيت عليهما من الانفجار وكدت
أحذرهما من ذلك . . ثم شاهدت فجأة «برصاً» صغيراً يسير ببطء وحذر
على الحائط خلف رأسها مباشرة . . كأنما يسمع ما تقوله لى :

وهمت بالتحرك لكى أقتله وأبعده عن زميلتى الطيبة . . لكنى
عجزت عن الحركة فجأة ، ووجدت شيئاً كالضباب الرمادى الفاتح يملأ
الجو أمامى ووجه سميحة يغيب شيئاً فشيئاً وراءه ، فرفعت ذراعى
لأنفص هذا الغمام لكيلا يحجب عنى وجه زميلتى الطيبة فسمعتُ صوتاً
أتياً من بعيد يقول بفرع : إسنديه يا سميحة قبل أن يقع .

ثم أفقت بعد ذلك ولم أر شيئاً!

(طبق الأصل من يوميات شاب مطعون فى قلبه).

هل كان يملك أن يفعل شيئاً آخر غير ما فعل؟ هل كان يستطيع أن يتكلم . . . أو يشرح . . . أو يدافع؟ ولو كان قد فعل أكان يستريح لما سترتب على فعله وقوله من إساءة بالغة لأقرب الناس إليه؟

لقد أدرك منذ البداية أن المصيبة مصيبته وحده، وأنه لا مفر من أن يطوى عليها صدره، ويضيف إلى ضيقه بها ألم العجز عن الشكوى وبث الأحزان . . . بل وألم مواجهة نظرات الآخرين التي تتهمه بالضعف . . . والعجز وتحجر المشاعر . . . وعلم الله ما ضعف ولا قست مشاعره، لكن ماذا يفعل وقد اختارت له الأقدار هذه النهاية الأليمة لأحلامه؟ وماذا يستطيع أن يقول أو يفعل، وهو إن «فعل» تنكّر لأقرب الناس إليه . . . وإن «قال» أساء إليه؟

لقد نشأ في أسرة بسيطة تحكمها أم قوية مسيطرة وأب موظف صغير مسالم . . . ومنذ صغره عانى من الإحساس بثانوية الدور . . . ونقص الاعتبار لدى أبويه، فالشقيق الأكبر الذي يكبره بعامين هو نجم الأسرة وموضع فخرها وهو الأكثر وسامة والأخف روحاً والأكثر جرأة والذي تُعقد دائماً المقارنات بينه وبينه فيميل الميزان لصالحه على الدوام.

11 ومنذ صغره وهو يعاني من ضعف البصر الذي اضطره لارتداء النظارة الطبية وهو طفل صغير، فكانت عثرات ضعيف البصر حين يفتقد نظارته أو ينساها في مكان ما دائماً موضع تندر الأبوين وسخرية الشقيق الأكبر وفكاهة الأسرة في جلسات الصفاء، ولم يدر أحد كم كانت تؤلمه هذه السخرية وتقض مضجعه؟

وفى المدرسة تحمّل سخريات الصغار من ضعف بصره وخجله وتلعثمه وضعف شخصيته بصبر غريب ، وحاول أن يعوض عجزه عن مجاراتهم فى ألعابهم بأداء واجبه المدرسى على خير وجه والتفوق فيه . . . فكانت درجاته دائماً أعلى من درجات شقيقه ، لكنه لم ينل رغم ذلك ما كان يحلم به من مكانة داخل أسرته ، فقد ظل الشقيق الأكبر نجم الأسرة بلا منازع رغم ضعف تحصيله فى المدرسة ورغم تعثره الدراسى أكثر من مرة خلال رحلة التعليم ، حتى انتهى به الأمر إلى التوقف عن الدراسة وهو فى سن الشباب ، وخروجه إلى دنيا العمل فى مشروع صغير قدمت له أمه رأس ماله من مصوغاتها ، فى حين واصل هو دراسته بنجاح حتى التحق بكلية مرموقة وتخرج فيها ، ولم يتغير سلم الأهمية فى ميزان أسرته ، فالأكبر مازال فى المقدمة رغم فشله حتى فى مشروعه التجارى الصغير ، وأمّه تقدم رغباته واحتياجاته على كل اعتبارات باقى الأخوة ، والأب كذلك وكلاهما ينتظران منه هو بالذات أن يضحى دائماً لأخيه بكل شىء ، وحين التحق بأول عمل يمارسه فى حياته ، وتسلم أول مرتب له ، فوجىء بأمه تطالبه بمعظم مرتبه ، لأن نجم الأسرة قد ارتبط بفتاة من جيرانه وينوى الزواج منها قريباً ، قدم لها مرتبه كاملاً ما عدا ما يحتاجه لانتقالاته وهو يكتف تسأوله الصامت : وماذا عنى . . . وعن مستقبلى يا أمى . . . وعن أحلامى فى الزواج والسعادة مثل شقيقى ؟

وتزوج الأخ الأكبر ، وبيعت قطعة الأرض الصغيرة التى يملكها الأب لشراء شقة مناسبة له فى البيت المجاور ، ولم يتوقف الأبوان لحظة أمام نصيبه ونصيب شقيقه الأصغر فى ثمن هذه الأرض لأن كل شىء يهون

فى سبيل إسعاد الشقيق الأكبر ، ولأن التضحية بالحق شىء منتظر منهما
لنجم الأسرة .

وفى أوقات الضيق كان يقول لنفسه لى ألف سبب وسبب لأن أضيق
بهذا الأخ الأنانى الذى يعتبر كل ما يناله منا حقاً له لا يستحق منه الشكر ،
وألف ألف سبب لأن أضيق بأمى وأبى اللذين يميزانه عنا منذ الصغر
حتى أرضعاه الغرور والكبر على أخويه ، ومع ذلك لست أستطيع أن
أكرهه أو أكرههما ولن أفعل ، فلا بد أن السماء تدخر لى ما سوف يشفى
نفسى من إحساسى الأليم بالظلم فى أسرتى .

ولم يطل انتظاره . . فلقد جاءته فرصة ممتازة للعمل فى الخارج بمرتب
مغر ، وسافر إلى مقر عمله ، وتحمل صعوبات البداية فى مجتمع غريب
عليه وبإخلاصه المعهود لكل ما يؤديه من عمل أقبل على عمله الجديد
حتى جاءه صوت أمه فى التليفون يطلب منه إرسال مبلغ كبير لإنقاذ تجارة
الشقيق الأكبر من الإفلاس وسداد ديون تهدده بالسجن فكتم تساؤله
المريّر مرة أخرى : وماذا عنى وعن مستقبلى يا أمى ؟ وأرسل المبلغ
المطلوب فاستهلك كل مدخراته خلال الفترة الماضية ، وواصل عمله
وحياته الجديدة صابراً ، وفى نهاية عامه الأول فيه جاءه صوت أمه مرة
أخرى يطالبه بإرسال كل ما يستطيع من نقود لمساعدة شقيقه الأصغر فى
زواجه ، وراجع حساباته بعد أن أرسل المبلغ المطلوب فوجد حصيلة عامه
الأول فى الغربية صفرًا كبيرًا ، فكأنما عاش عامًا طويلاً من العمل المضنى
مقابل طعامه وشرابه وسكناه فى شقة مشتركة مع اثنين من الغرباء مثله
ولم يتساءل هذه المرة . . وماذا عنى يا أمى وعن مستقبلى وحقى فى

الزواج والسعادة مثلهما؟ فلقد أصبح أمراً مألوفاً ومتوقفاً منه فى أسرته أن تتجاهل دائماً اعتباراته الشخصية إرضاءً لرغبات أمه ، التى تتركز دائماً حول الأكبر وبقدر أقل حول الشقيق الأصغر ، وتتجاهل دائماً الحلقة الوسطى من أبنائها ، كأنما قد كتب عليه وحده أن يحترق دائماً من أجل الآخرين .

وبعد عامين طويلين من الغربة القاسية عاد فى أول إجازة له محملاً بالهدايا للجميع . . وبعد فرحة اللقاء واجتماع الشمل مرة أخرى فاتح أمه برغبته فى الزواج بعد أن بلغ السابعة والعشرين من عمره . . وتوقع أن تتفجر فرحتها فى وجهه فترضى نفسه وتعوضه عن شقاء الغربة ، فإذا بها تتردد . . وتتلعثم . . وتحذثه عن ابن عمه الذى تزوج وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره . . وابن خاله الذى فضل أن ينتهز سنوات العمل فى الخارج لجمع أكبر قدر ممكن من المدخرات ثم تزوج بعد عودته النهائية من عمله وهو فى الرابعة والثلاثين من العمر . . إلخ .

وأحس بوخز الألم فى صدره . . وأدرك المطلوب منه بغير كلام صريح ، وهو أن يظل عزباً فى الغربة لأطول فترة ممكنة ، ليكون قادراً دائماً على تلبية مطالبها ومطالب أخويه ، وحتى لا يتزوج فتستهلك زيجته قدراً كبيراً من مدخراته ، ثم يصطحب زوجته معه إلى مقر عمله فيقيم فى مسكن مستقل يستهلك جانباً آخر من دخله ، وتكون له حياة عائلية خاصة لها مطالبها المادية و«مخاطرها» الأكيدة وأهمها أن تنبهه لذاتيته وحقوقه الشخصية فى مواجهة هذا الذوبان اللانهائى فى عالم الأسرة الكبيرة .

أنصت إلى حديثها وهو يستجلى مراميها الحقيقية . . ويتألم لها صامتاً . . وفجأة وجد نفسه يتساءل : أليس من المحتمل ألا أكون لقيطاً ربه حين تأخر بها الإنجاب؟ وتراقص ظل ابتسامة شاحبة على شفثيه وهو يراجع نفسه صامتاً: وكيف يكون ذلك وأنا لست الابن الأكبر، بل الأوسط؟

وسلم باستحالة الفكرة فنحأها جانباً متعجباً من غرابتها، ولم يجد ما يقوله لأمه سوى أنه سيفكر فيما قالت، وقضى باقى إجازته مكتئباً وأحس بالارتياح حين انتهت الإجازة وعاد إلى مقر عمله، وفى مهجره صارح زميلاً جمعت بينهما ظروف الغربة بهوموه فسأله: وماذا تنتظر لكى تكون لك أسرتك الصغيرة . . ولست قاصراً ولا عاجزاً من الناحية المادية عن الزواج؟ وتساءل معه متعجباً: حقاً ماذا أنتظر؟ موافقة أمى ورضاها؟ وكيف السبيل إليها ورضاها فى ألا أتزوج وأظل بقرة الأسرة الحلوب إلى النهاية! ولم تكن تربطه علاقة بفتاة محددة، ويرغب فى الارتباط بها وقد انقضت سنوات الدراسة الجامعية دون أن يقترب من فتاة - بسبب خجله وانعدام ثقته فى نفسه - أو تقترب منه فتاة.

وراجع فى مخيلته فتيات الأسرة والجيران ليختار واحدة يستطيع أن يتقدم لخطبتها . . وقفزت إلى مخيلته صورة فتاة من الأقارب البعيدين، جاءت مع أمها لتهنئته بالعودة خلال إجازته فى مصر . . وتركزت رغبته فيها، وبعث لأبيه رسالة مطولة يشرح له فيها ظروفه، ويرجوه أن يتقدم لأبيها نيابة عنه، وجاءته من الأب رسالة أطول بخط أبيه . . وإملاء أمه فيها مساوىء هذه الفتاة وأسرتها، ويطلب منه أن يصرف نظره عنها.

وراجع ذاكرته مرة أخرى حتى استقرت على فتاة أخرى من أقارب أمه وكتب إلى أبيه برغبته . . وجاءه الرد بقائمة طويلة من المثالب والعيوب التي لا يقبل بها رجل ذو كرامة ، وتكررت القصة مع ثلاثة حتى كاد يصدق أن جميع فتيات الأهل والأقارب والجيران لا يصلحن للزواج من درة غالية مثله ، لولا أنه يعرف «الدوافع» ويتألم لها ، وحين استقرت مخيلته على فتاة رابعة ، لم يكتب لأبيه هذه المرة وإنما كتب لأبيها مباشرة ، وتلقى منه الرد بالترحاب .

وفي أقرب فرصة عاد لمصر وواجه أمه وأباه بالأمر الواقع وتحمل لوم أمه على هذا «التهور» الذي لا يليق بشاب عاقل مثله ، وتقدم لفتاته . . وقدم لها الشبكة . . وأحس بفرحة لم يحس بمثلها من قبل رغم ما بدا له من فتور أمه تجاه الموضوع وتحفزها لخلق المشكلات مع أسرة فتاته ، وعاد إلى مقر عمله سعيداً وتواصلت الرسائل بينه وبين فتاته فوجد نفسه ، وهو القلب الذي لم يخفق بالحب لأحد من قبل ، غارقاً حتى الثمالة في حبها على البعد ، وتعجل عقد القران واستدعاها إلى مقر عمله رغم اعتراضات أمه الصاخبة على ذلك وتهديدها له بغضب السماء عليه اتباعاً لغضب قلب الأم عليه ! وتم عقد القران بالتوكيل ولم يكن وكيله في ذلك أبوه وإنما شقيقه الأصغر وسافرت إليه عروسه فنهل رحيق الحب الذي لم يذق له طعاماً من قبل حتى ارتوى . . وأمل أن تنسيه سعادته الجديدة آلام حياته الماضية . . وتحمل صابراً لوم الأم وعتابها ومطالبها المادية التي انهالت عليه كالطر بعد الزواج ، كأنما تريد أن تجرده من أية مدخرات قد تستمتع بها هذه الوافدة الغريبة على حياته ، ولم يرفض لأمه

طلباً . . وحتى المبلغ الشهري الذي فرضت عليه أن يعين به شقيقه الأكبر نجم الأسرة على مطالب أسرته وأبنائه استجاب له راضياً ولم يتساءل : ولماذا لا تطالب شقيقه ببذل بعض الجهد في تجارته وبالاعتدال في إنفاقه لينقذ تجارته . . بدلا من أن يطالبه هو بتحمل عواقب استهتاره وكسله ونومه حتى الضحى كل يوم؟

وأنجب طفلاً جميلاً سعد به كل السعادة . . فلم ينغص عليه فرحته به سوى صوت أمه في التليفون ينصحه ألا ينجب غيره حتى لا يكثر الأبناء وتكثر المطالب!

ولم يجرؤ أن يطالبها بتوجيه نفس النصيحة المخلصة لشقيقه الأكبر ، الذي أنجب ثلاثة أطفال في خمسة أعوام من الزواج أو لشقيقه الأصغر الذي أنجب طفلين . . وتساءل ساخطاً :

- إلى متى يا أمى؟

ولم يكن ينوى اتباع نصيحتها . . لكن الأقدار شاءت له ألا ينجب غيره ، فقد تعرضت زوجته لمتاعب صحية بعد الولادة انتهت بعدم قدرتها على إنجاب مزيد من الأطفال .

وبعد عامين آخرين انتهى عمله في الخارج . . واستعد للعودة إلى وظيفته الأصلية ، وعاد فأقام مع أبيه وأمه بصفة مؤقتة ، وراح يبحث عن شقة قريبة منهما لينتقل إليها مع زوجته ، فإذا بأمه تقيم الدنيا وتقعدها مطالبة إياه بالاستمرار في الحياة معها ومع أبيه إلى الأبد ، فهما وحيدان وقد استقل الأكبر والأصغر بحياتهما . . ولم يعد لهما سواه ليعيش بينهما .

و حار فيما يفعل فى أمره فزوجه الشابة ترى أن من حقها أن يكون لها
عشها الصغير الخاص بها . . وأمه ترى فى قبوله لرغبتها عقوقاً لها
ونكراناً لجميلها . . ولهذا فمن واجبه أن يقهر زوجته على العيش معه فى
مسكن أبيه وقبول سيطرتها الكاملة على حياة الجميع . . وتعجب لماذا لم
يسمع شيئاً عن العقوق حين استقل أخواه بحياتهما؟ وطلب من زوجته
أن تتحمل التجربة لمدة ستة شهور؛ فإذا نجحت استمر فيها، وإن فشلت
حقق لها رغبتها .

واستجابت الزوجة راغمة لمطلب زوجها . . فلم يخلُ يوم من أيام
ذلك من أسباب للكدر والنزاع الدائم بين أمه وزوجته، ولم يدخل إلى
زوجته بعد هذا الاستقبال الحافل إلا وتلقته بالبكاء والعيويل . . والمطالبة
أن يجد حلاً لهذا الوضع المستحيل وضاق باستمرار هذه المتاعب، فرجا
أمه أن تسمح له بما سمحت به لشقيقه . . وهو أن يعيش فى مسكن قريب
منها، فأبت عليه ذلك وسقطت مريضة أو متظاهرة بالمرض كعادتها كلما
أرادت أن تفرض إرادتها عليه، واستعان بأبيه على أمه فلم يجد لديه
معيناً، ولجأ إلى شقيقه مستعيناً بهما على أمه فلم ينجحاً فى مهمتهما،
ولم يثابرا عليها اتقاء لغضب الأم المسيطرة .

وعاد من عمله ذات يوم فوجد زوجته تبكى وتتشنج وأمه تصيح فى
غضب فما إن رآته حتى تحوّل هياجها إلى بكاء وشكوى من عدوان
زوجته عليها . . ووقف حائراً بين المرأتين وكل منهما تطالبه بأن يحكم
بالعدل بينهما، فلا يجد ما يقوله إلى أن فقدت زوجته صبرها . .
وصففته بالعبرة المؤلمة: أنت لست رجلاً ولن أعيش مع ظل رجل ثم

جمعت ملابسها ، وحملت طفلها الصغير وغادرت المسكن وأمه تطالبه
بالأيمنها من الخروج ، وأن يدعها لتتعلم الدرس القاسى فى بيت
أبيها! .

واختفت نسائم الراحة الأخيرة من حياته . . وخلا عليه البيت من
زوجته وطفله الصغير ، وما إن حدث ذلك حتى برئت أمه من مرضها
المزعوم وتفجرت فيها دماء الصحة والعافية . . وفشلت المساعى مع
والد زوجته لإعادتها إلى بيتها إلا إذا «تحرر» من سيطرة الأم واتخذ
لنفسه مسكناً مستقلاً . . وباح لأبيه بخواطره راجياً إقناع أمه بحقه فى
الحياة المستقلة ، فازدادت إصراراً واعتبرت الأمر قضية حياة أو موت
بالنسبة لها .

ومضت أسابيع وهو محروم من زوجته وطفله لا يراها إلا فى
زيارات قصيرة لبيت أسرتها . . وكلما عاد من زيارتها مهموماً افتعلت
أمه أسباب المرح . . وقامت لخدمته بنشاط وحيوية كأنما تذكره بأن حياته
لم تنقص شيئاً ذا بال!

واختفت الشكوى الدائمة من المرض من على لسانها وحلت
محلها . . الحيوية . . والنشاط . . والمرح .

وراح يراقب مرحها وحيويتها فى صمت وهو يتساءل للمرة
العشرين :

وماذا عنى يا أمى؟ . . ولماذا أنا وحدى من بين أبنائك الذى ينبغى
عليه دائماً أن يضحى باعتباراته الشخصية من أجلك وبلا نهاية؟

وطال انتظار والد فتاته لأن يحسم أمره ويتخذ لنفسه مسكناً مستقلاً
ويخرج من دائرة العجز أمام أمه ، ثم فقد صبره أخيراً فاستدعاه ذات يوم
وطلب منه أن يطلق زوجته . . ورفض أن يصدق أن هذه هي رغبة أم
طفله الوحيد . . وأصر على أن يسمع منها هذه الرغبة . . فجاءت إلى
مجلسه في صالون أسرتها ، وكررتها عليه فغامت الدنيا أمام عينيه .

وبعد أيام طلق زوجته ، وأعطاه كل حقوقها راضياً وعاد إلى بيته
منقبضاً . . ومتجنباً الحديث مع أحد فإذا بأمه تستقبله بزغرودة مدوية
أدت أذنيه ، كأنما انغرست فيهما شوكتان مؤلمتان . . وهي «تبشره» بأنها
سترشح له من هي أجمل وأفضل منها! .

ووقف ينظر إليها صامتاً وحزيناً وأحزانه تتفاعل داخله ، ثم نحاها عن
طريقه ودخل إلى غرفته صامتاً وهو يكرر السؤال الحائر :

لماذا أنا وحدي يا أمي؟ وإلى متى؟

ولم يتوصل إلى جواب مريح رغم طول التفكير ، وفي غمرة أحزانه ،
قفز إلى مخيلته وجه طفله الحبيب فتعلق به كآخر أمل في استعادة السعادة
المفقودة ، وتركزت عليه كل آماله في إصلاح كل ما تراكم في حياته من
مرارات وأخطاء و«أقسم» لنفسه . . إن نجح طفله في استمالة قلب زوجته
للعودة إليه من جديد أن يحطم قيود عجزه أمام أمه الجبارة . . وأن يهيئ
لنفسه وزوجته عشاً صغيراً جميلاً وألا ينهزم مرة أخرى أمام جبروت أمه
وتسلطها عليه بالمرض أو التظاهر به . . ومع أدائه لجميع حقوقها عليه . .
دون تضحية بحقه هو في السعادة .

نعم دون تضحية بحقه في السعادة . . ومهما كانت العواقب . . مهما
كانت العواقب !

واستراح للقرار الخطير، الذي تجرأ على اتخاذه فهدأت نفسه بعض
الشيء . . ولاح له في أزمته الحالكة بصيص ضوء جميل !